٢
أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

Looloo
www.dvd4arab.com

طيبة أحمد الابراهيم

الإنسان المتعدد

الإنسان المتعدد
أو
(الإنسان الأبم)

مضى علىّ خمسة وأربعون يومًا ، وأنا راقدة فى السرير ، طريحة الحمى ، أفيق أحيانًا ، لأجد نفسى سابحة فى بحر من العرق ، وأتردى أخرى فى غيبوبة ، عاجزة عن الشعور بأى شىء مما حولى . ولولا جسدى الفتى حينئذ ، حيث كنت لا أعدو الخامسة عشرة من عمرى ، وإلا لقضى علىّ ، ليس بسبب المرض فحسب ، بل بما أفعمت به نفسى من الأحزان والهموم والقلق ، بما يثقل كاهل الجبال . كل ذلك بسبب ما مرّ بى خلال السنة الرهيبة هذه .. وما الغيبوبة التى صاحبت الحمى سوى رحمة بعقلى ، كى لا يشت .. كنت على نحو موصول طيلة الخمسة والأربعين يومًا ، كلما أفيق من غيبوبتى ، وأنعم النظر فيما جرى حولى ، فلا أجد غير الوحدة مطبقة علي ، كما كنت قبل أربعة عشر عامًا ، حتى تعاودنى الغيبوبة مرة أخرى ، وفى دقائق الإفاقة القصار ، أخال نفسى وقد عادت هباء فى نظر كل من يحيط بى ، كما أجد كل من حولى ، هباء فى نظرى .

لقد فارقنى أعز مخلوق ، على نحو مفاجئ ، دون تخطيط ، أو إطالة تدبر ، وأنا لم أكد أحظى بمعرفته سوى عام ، أو بعض من عام .

أعز مخلوق ،وجدت معه ثمة معنى أن يعيش الإنسان للحياة فحسب . والغريب أن أعز الناس يحمل رقمًا فحسب .. رقمًا ، بيد أنى ووالدته ، التى هى ليست بأمه ، منحناه كنية .

أطلقنا عليه اسم (على) عند مناداته .. وهذا كما قلت ليس اسمه .. لقد اختارته له أمه ، على سبيل الشهرة . أى أن هذا اللقب ليس اسمًا له ، بطريقة رسمية ، أو قانونية ، أنا وهى فقط ، نناديه به . أما البقية ممن كان لهم نصيب التعايش معه ، لفترة تطول ، أو تقصر ، فكأنهم مجبولون على إيذاء المشاعر ، لم ينادوه قط بغير رقمه . رفضوا دون إعلان ، استعمال اسم الشهرة المختار ، وتمسكوا بإطلاق الرقم عليه (واحد) ، هذا رقمه ، كما جاء فى أوراقه الرسمية .

لا تعجبوا .. دعوا الدهشة جانبًا ، إلى أن تسمعوا الحكاية من أولها ، كما سمعت جزءًا منها ، وعشت الباقى فيها .

لقد سمعت الحكاية من والدته ، التى ذكرت قبل قليل ، أنها ليست بأمه . ومن أصدق أصدقاء أبيه ، ذلك الأب ، الذى هو ليس بأبيه بالمعنى المفهوم . ومن معايشة بعض الناس له ، ومن ضمنهم أنا .

ولكن قبل الشروع فى الحديث ، عن أعز الناس لدىّ ، لابد أنكم تريدون أن تعرفوا من تكون محدثتكم .. فى ميسورى أن أخبركم .

إنه لا يعدوا ، كونى ، فتاة طبيعية ، وأعنى بالطبيعة ، أننى إنسانة لم تساهم التقنية فى صنعى . أى أننى لست نتاج إحدى التقنيات الحديثة ، التى تدخلت فى تغيير العمق الفيزيائى للإنسان . بمعنى آخر ، أننى لست نتاج الأنبوبة ، ولم أجمد نفسى لاستفيق لتوّى من سبات عميق ، لأعاود إعادة تجميد نفسى ، فى سبيل المحافظة على بقائى ، كما فعل السيد (موا) فى قصة (الإنسان الباهت) . كما أننى لست من الكاوننغ .. أى لست توأمة لأحد . وإن كان للأخير من الأثر على ، ما غير به مسيرة حياتى . التى لم تكن لتتغير لو لم يلقه القدر فى طريقى .

كما ذكرت أنا فتاة فى الخامسة عشرة من عمرى - زمن حكايتى ، ليس هو الزمن الذى أروى فيه الحكاية ... ليس لى ثمة أب ، أو أم ، أو أيما أقارب .

فتحت عينى ، عندما وعيت ما حولى ، لأجدنى كذلك .. فى دار من أتعس دور التربية للأيتام ، أو اللقطاء ، أو من فى حكمهم .. منقطعة تمامًا عن العالم الخارجى ، لا أجد من يسأل عنى ، أو يزورنى ، فى أى يوم من أيام الزيارات المخصصة أسبوعيًا ، والتى تقام لذوى النزلاء فى تلك الدار .

ولولا تلك الزيارات ، التى أتحفتنى بها والدة (على) ، والتى جاءت متأخرة أربعة عشر عامًا ، من الوحدة التامة . أقول لولا تلك الزيارات التى تقوم بها والدة (على) - التى هى ليست بأمه - لما عرفت من يهتم بى ، أو يسأل عنى . بيد أن تلك الزيارات أيضًا لم تكن موجهة بالقصد الىّ ، وإنما جاءت لى مباشرة ، كى تمر من خلالى ، وصولًا ، إلى أخبار الفتى (على) .. وذلك بسبب أن والدته ، منعت من زيارته ، بأمر من أبيه - سوف أذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد .. ثم أصبحت تلك الزيارات موجهة لى بعد هروب (على) ، من دار الأيتام ، التعسة السيئة ، التى كلما مرّ ذكرها بذهنى أحس كأن ثمة جبلًا من الهموم يجثم فوق صدرى ، فيعوق منى النفس .

فى وسعكم تصور تلك الزيارات القصار التى كنت أنهيها قبل أوان انتهائها . كى أحظى بالجلوس إلى (على) ، فى باحة حديقة الدار ، فى يوم الزيارة الموعود ، وهو اليوم الوحيد الذى أراه فيه ، خلال أسبوع كامل من الحصار ، هو اليوم الوحيد الذى يسمح لى بمحادثته ، على مرأى من الجميع .. أقول لولا تلك الزيارات

القصار ، لما اهتم بى أحد ، إلا كما يهتم بشاة مربوطة بقطيع من الأغنام والخراف .

وأيضًا لولا تلك النزهات التى تقام للنزلاء ، كل فترة خارج الدار ، والتى يحرم (على) أيضًا من مصاحبتنا فيها ، بأمر من أبيه - لما عرفت أن هناك عالمًا آخر غير عالم الدار ، التى أقيم بها .. بمعنى أوضح ، أنا لقيطة .. القطنى أحد المارة ، وأحضرنى إلى هذه الدار ، على أن يعود فى اليوم التالى لدفع مصاريف إيوائى ، ولكنه لم يعد أبدًا .. قد يكون هو أبى ، من يعلم ..؟ المهم أننى أصبحت عالة على ذوى الدار ، التى لا تقبل من النزلاء ، إلا من كان قادرًا على دفع المصاريف .. ولكن كان هكذا . كأن القدر أبى إلا الإمعان فى إذلالى ، ففوق أنى لقيطة ، فأنا عالة على صاحبة الدار ، التى تتطلع مديرتها الفظة القاسية الوجدان ، إلى اليوم الذى تتخلص فيه من عبء تربيتى ، فلا يكون بميسورها رميى إلى قارعة الطريق .

وسميت (أمل) ، ولست أدرى لما اختير لى هذا الاسم ، ومن الذى اختاره ؟ سميت (بأمل) ، وكل مسارات حياتى تصب فى بحر من اليأس . لست أدرى .. (أمل) فقط ، دون اسم آخر يضاف إليه ، يميزه عما يشبهه .. أنا الوحيدة من بين النزلاء ، واللقطاء ، التى تحمل اسمًا مفردًا .. عدا (على) ، الذى يحمل رقمًا مفردًا (واحدًا) ، وكأن القدر يأبى إلا أن يشابه بيننا .

« لقيطة » أول ما سمعت هذه اللفظة تقال عنى ، عند تداول بعض الأوراق الرسمية بشأنى . وعندما سألت معلمة اللغة العربية فى دار الأيتام ، وأنا فى حدود الثامنة من عمرى على ما أذكر .. قالت لى .. إن اللقيطة هى التى جاءت إلى هذا العالم بطريقة غير

مشروعة .. وبما أنها جاءت كذلك ، فقد تخلى عنها والداها خوفًا من الفضيحة .

طبعًا ، وأنا ، فى تلك السن الغضة لم أستوعب معنى الإجابة . ولم أفهم معنى الفضيحة ، إلا أنها شىء مقيت ، مهول إلى درجة أنها اضطرت والدىّ إلى أن يتخليا عنى .. كان حقدى على « الفضيحة » مساويًا للحقد الذى يكنه (على) للفظة « التجربة » ، التى جاء منها . كلانا ، فى تلك السن المبكرة ، لم يكن فقه المعانى ، أو المفاهيم ، واضحًا فى ذهنينا .

والآن بعد أن عرفتم من أنا ، سأسرد حكاية أعز الناس ، أو حكايتنا معًا . حيث أن كلًا منهما متداخلة تداخل اللحمة بالسدى ، فضلًا عن أنهما متماثلتان فى عوامل الشقاء ، متباريتان فى مقدار البؤس .

ولتكن البداية كما شاهدت بعض الوقائع بنفسى . أما الوقائع الأخرى ، فهى كما رواها كل من له صلة بـ (على) ، أو بوالده . ولأنه ليس لى من معدى من رواية كل ما ذكر ، كما سمعته ، على لسان قائله . فأرجو مراعاة ذلك ، فما سمعى لهذه الحكايات ، إلا مَعْبَرًا إليكم . كما أننى سأنقل إليكم الأحداث متتابعة حسب تسلسلها ، وليس كما سمعتها من مصادرها ، دفعة واحدة .

★ ★ ★

دق الجرس فى السابعة والنصف تمامًا ، ينادى الأطفال ، والصبية إلى طعام الإفطار ، قبل الدخول إلى الفصول للدرس .

صاحت ، إحدى المعلمات :

أين (واحد) ؟.. إننى لأجده .. يا له من جحش عنيد .

رفعت عقيرتها :

(واحد) .. (واحد) ..

جاء طفل فى منتصف الثامنة من العمر ، طويل قياسًا إلى سنه ، هزيل ، مقطب الجبين دومًا ، اقترب من طرف المائدة المستطيلة ، الجماعية ، المخصصة لمن هم فى مثل سنه .. وجلس بعيدًا عن رفاقه .

صاحت به نفس المعلمة :

لِمَ أنت هناك .. أتخشى العدوى ..؟ .. اجلس قريبًا أيها الجحش .

ولما لم يرد الصبى ، ولم يحرك ساكنًا .. حتى ولم يلق نظرة ناحيتها .. استثارها عناده ، وصمته ، فاقتربت منه ، تسحبه من أذنه .

هل تريد أن تقدم لك خدمة خاصة ؟. اجلس ها هنا ، فى متناول الجميع ..

واجلسته مرغمًا عند الطرف القريب من الباقين .. ثم صاحت به بعد فترة :

لماذا لا تتناول إفطارك ؟. هل تريد معاقبتى ، بعدم تناوله ؟. ألا تعلم ، أنك توفر لنا وجبة نعطيها لك ظهرًا .

فما كان من الصبى إلا أن قلب الصحن بيده .. فضرب هذا صدر إحدى زميلاته الصغيرات . وكانت جالسة بالقرب منه ، فأتلف ثيابها ..

ولم تكن تلك الزميلة أحدًا غيرى .. فانقلبت الصحون على بعضها .. فصرخت المعلمة مهتاجة .. وهجمت عليه ، تريد صفعه ، لو لم تر مديرة الدار ، آتية من بعيد على صوت الضوضاء . فتوقفت المعلمة فى منتصف المسافة إليه .. ثم تحولت إلىّ ، وقالت :

تعالى .. يا (أمل) .. تعالى ..

وأمسكت بكتفى ، وتحولت نحو المديرة ، قائلة :

تصورى هذا الرقم .. لقد قلب صحن الطعام على صدر الطفلة المسكينة .

فنظرت إليه المديرة شزرًا . وقالت :

إيت ، به ، إلى غرفة المكتب ..

وتخلصت من قبضة الخادمة التى تريد تغيير ثوبى . وجريت خلفه ، كى أرى كيف يحصل على عقابه من المديرة ، لأشفى غليلى منه .. فلم أجرؤ على الدخول لا أنا ولا زميلاتى ممن جرين معى . وإنما أخذنا نتلصص من بين قضبان نافذة المكتب .

إن أنس لا أنسى قط ، وقفته تلك أمام المديرة ، المنتفخة الأوداج ، وكأن به مسًا كهربيًا ، يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه . لقد مس المنظر شغاف قلبى الصغير ، وكدت أصرخ بها من خلف النافذة .. « إننى أسامحه » .. لولا خوفى منها .

كانت رغبتى قبل لحظات ، أن أراها تصفعه لتعديه علىّ دون سبب منى . ولكن لعجبى رأيت المديرة لا تضربه ، كما توقعت ، ولم تصرخ به ، بل طامنت من لهجتها الحادة .. وسألته :

لِمَ قلبت إناء الطعام على صدر زميلتك .؟ .. أجب يا (واحد) ..

ولما لم يحر جوابًا .. عادت إلى السؤال بنفس اللهجة المتطامنة .

هل تشاجرت معها .؟ لعلها أساءت إليك .؟

ولما لم تتلق ردًا أيضًا .. صاحت به :

هل أصبت بالصمم ، أيها العنيد ؟. ألم تسمع كلامى ؟

واستمر الصبى معتصمًا بصمته .. فصرخت به :

لُعِنَت التجربة ، التى جاءت بك إلى هذا العالم .. تكلم وإلا سجنتك فى غرفتك ، لا تخرج منها ، إلا بعد الاعتذار عن فعلتك .

ولما لم يُجْدِ معه تهديد ، ولا وعيد .. صاحت بالخادمة قبل أن تفقد أعصابها ، فتضربه .

خذى هذا المسخ إلى غرفته ، لا يخرج منها حتى يعتذر .

لم أعرف فى حينه ماذا جرى فى غرفته ، بعد أن جُرّ إليها جرًا .. ولكنه وصف حالته لى بعد ذلك بأعوام ، فقال :

جلست على السرير ، متحفزًا للدفاع عن نفسى ، كأن العالم كله سيطبق على .. رغم أنى لا أعرف من العالم سوى هذه الدار الضيقة المساحة ، المزدحمة بالأفراد . ورغم خوفى وجزعى إلا أننى مستعد للمقاومة إلى آخر رمق فىّ .

حقًا . يا لى من طفل عنيد ، لا أسلم بسهولة .. بل لا أسلم أبدًا ، إلا حين تقف بى قدراتى عن المقاومة . وأظن أنى أخذت قوة المراس هذه من أبى ، أى تو أمى .

جلست على حافة السرير ، شاخصًا ببصرى ناحية الباب الموصد . يهيمن علىّ ويثير أعصابى ، تردد صدى صوت الرئيسة فى أذنى .

لعنت التجربة التى أتت بك .. لعنت التجربة التى أتت بك .. إننى أسمع هذه العبارة ، مرارًا ، وتكرارًا ، منذ بدأت أعى معنى الكلمات ،

تجربة .. تجربة . دون أن أفهم لها معنى .. لِمَ هى مرتبطة بى ، دون رفاقى ؟. لِمَ أنا ، أنكر بها ، كلما تأزم الأمر بينى وبين أى من معلماتى ، أو زميلاتى؟ حتى الرئيسة ، لم يخل حديثها معى ، كل ما تعرضت لها . دومًا أنكّر بالتجربة .. كلهم يستنكرون مجيئى من التجربة .. لا بد أنها عار على من يأتى منها .. لشدّما أكره هذه العبارة القاسية .. إننى لم أشهد تلك التجربة قط . فلِمَ ، إذن أرتبط بها .. ترى هل هى مثل الرئيسة ، قاسية .. بل لعلها أشد قسوة .. يبدو أنها أشد قسوة .. إن المديرة تلعنها .. والمدرسات يلعننها .. وحتى زملاءه يقلدونهن فيلعنونها .. ولكن لن ألعنها . نكاية بهم .. لن ألعنها .. رغم أننى أكرهها .. ترى هل هناك أناس لا يأتون من التجربة ؟.. إننى أنكر ، أننى سألت زميلتى (آمنة) .

هل أتت بك التجربة إلى هذا العالم ؟.

فردت .. لست أدرى من أتى بى .. ولكن ما معنى كلمة (التجربة) .. إن معلمة العلوم تعمل الكثير من التجارب فى المختبر .

فقلت لها :

إنى لا أدرى أيضًا .. ولا أريد أن أتكلم عن مدرسة العلوم .. إننى أكرهها .

وقلت لنفسى :

لابد أنها شىء مخيف ، وفظيع تلك التجربة .. وإلا فلم أُنكر بها كلما غُضِبَ علىّ .. لكم هى مكروهة تلك التجربة .. ليتهم جاءوا كلهم من التجربة ، عندئذ لن أكون مختلفًا عنهم ، ولن ينكّرنى أحد بها .. ترى من أين جاءوا إذن ؟.

ولا أدرى لماذا تنكررت قول (آمنة) ، وهى تشير إلى رقم فى كتاب الحساب .. هذا (واحد) ، وأنت (واحد) . فإذا جمعناكما ، تصبحان اثنين ..

لقد أصررت حينها على عض أصبعها ، الذى أشارت به إلى .. وعضضته فعلًا ، حتى أدميته ، بعد معركة صغيرة معها ، كنت فيها المنتصر .

وسجنت يومها فى هذه ، الغرفة . لكم أكره (آمنة) .. ليتنى أراها الآن لأعضها .. ولكنها أخرجت من الدار . ذهبت ، لا أدرى إلى أين . أحدهم يقول إنها ماتت .

تحولت فى تلك اللحظة إلى وسادتى فأخذت أعضها ، وأمزقها ، ولم أتركها ، حتى أصبحت خيوطًا مهلهلة .. ثم عاودنى الخوف . فجزعت ، إن الخادمة سوف تراها فى الصباح ، عندما تنظف الغرفة . جمعت الخيوط ، وألقيت بها تحت السرير . وجلست مكانى ساكنًا .. أنظر إلى الباب فى تحفز لأقل حركة .. حتى هجم الظلام . فلم أشعر إلا وقد وضعت رأسى الصغير المكدود ، عرضًا على السرير ، حيث كنت .. وغفوت مجهدًا .

سقطت حزمة من ضوء الشمس ، على جانب من رقبتى ، وأذنى من نافذة صغيرة ، على مرتفع من جدار الغرفة . تلك النافذة التى أصبحت فيما بعد معبرًا لى ، كل ليلة للقياك ـ أتذكرين ؟ .. وبرغم أن الوقت كان شتاء ، فإن تلك الحزمة شكلت لسعة من الحرارة المستديمة ، خليقة بأن توقظ أى نائم مستغرق فى نومه ، ولكنى لم أشعر بها ، إلا بعد يقظتى ، ربما لأننى كنت نائمًا بدون غطاء ، يحمى ظهرى من لفحة برد المناخ القارى الذى نعيشه .. لم توقظنى لا لفحة البرد الجاف الذى جمد أطرافى طيلة ليلة شتاء طويلة ، ولا لسعة حرارة حزمة الضوء الساقطة من النافذة عند الضحى . ولكنى قفزت من نومى مرتعبًا عندما سمعت صرير المفتاح فى قفل الباب .. واعتدلت واقفًا فى وسط الغرفة . تأهبًا للدفاع عن نفسى .

دخلت المعلمة مبتسمة على غير عادتها ، فقالت :

هيه .. (واحد) .. تعال لتعتذر للمديرة ، كى تخرج للإفطار ، ومن ثم الدرس معنا ..

وألقت بيدها على كتفى .

فنفضت كتفى ، مبتعدًا عنها ، معلنًا بإصرار على الصمت ، رافضًا لأى اعتذار .. مستعدًا للمشاكسة .. بيد أن المعلمة خشيت تمردى ، فاستدارت تريد مغادرة الغرفة . وعندما وقع بصرها على صينية العشاء التى لم تمس من ليلة البارحة ، والتى لا أدرى متى أحضرت إلى الغرفة ... وعلى السرير الخالى من الوسادة .. قالت وهى تدير بصرها فى أنحاء الغرفة الصغيرة :

أين وسادتك .. ؟

ولما لم ترها ، أردفت ضاحكة :

هل أكلتها بدلًا من العشاء ..؟

كانت تحاول إضحاكى ، كى تتغلب على مقاومتى ، فتقتادنى إلى المديرة للاعتذار .. ولكنى فهمت محاولتها فهما ضبابيًا ، فالتقطت أقرب شىء إلى يدى . وكانت كراسة الرسم ، فقذفتها بها .

فصرخت فىّ تلعننى . وهى تندفع راكضة نحو الباب لتقفله بعد خروجها . قبل أن أتمكن أنا من الخروج .. ولمّا لم أستطع ذلك ، أحسست بألم الهزيمة . فأخذت أضرب الباب بكلتا يدىّ ، وأهزه وأصرخ بصوت منكر .

أفزعت صرخاتى كل من فى المبنى ، وتجمهروا حول الباب الموصد ، وصاحت الرئيسة من خلفه : ما هذا الذى تفعله ..؟ إن لم تهدأ ستسجن لمدة أسبوع ، وليس ليوم واحد .. ألا ترى الأطفال كم هم هادئون .. ماذا يثيرك ؟. لما لا تكون مثلهم ؟

ثم أردفت بنغمة مغايرة .. كانت توجه الحديث فيما بدا لى ، إلى إحدى المعلمات :

لماذا هو هكذا ؟. ترى تجاربهم تخلق أناسًا على هذه الشاكلة .. ليت تلك التجربة لم تفشل .. لو أنهم أفلحوا فى تعطيل مخه ، لكان فى ذلك إراحة لنا .

لم أكد أسمع تلك العبارة ، حتى أحسست ، كما لو كانت يداى شلت بصورة مفاجئة .. فقد تخشبتا على الباب .. فلم يعد فى ميسورى هزه أو ضربه ، ثم تحولت إلى السرير ، وجلست صامتًا ، كما فعلت يوم أمس .. جلست ساكنًا . ولكن يضطرب فى أعماقى جيشان من الانفعالات . لو ظهر بعض منها على شكل طاقة حركية لدمرت عشرة من أمثال قوة ذلك الباب المغلق علىّ . بيد أنى ورغم ما بى سمعت ما يدور خلف الباب ، من محاولات لمناداتى . وتساؤلات وتكهنان عن سبب سكوتى . ولكن أيًا منها لم يصل إلى السبب الحقيقى قط .. ثم لم أعد أسمع شيئًا .. لقد غرقت فى أعماقى .. إذن التجربة هى السبب .. لقد صدق ظنى ، إنها تكرهنى ، إنها تريد تعطيل مخى لجعلى مجنونًا .. ليتنى أراها ، لأمزقها بين أسنانى شرّ ممزق ، وتحولت إلى أغطية السرير فأخذت أمزقها واحدة إثر واحدة ، حتى تحولت إلى نتف صغيرة . بعدها أخرجت نتف الوسادة من تحت السرير ، وكومتهم جميعًا أمام الباب المغلق بتحدٍّ جبار . ثم استدرت فى أنحاء الغرفة الضيقة ، وأخذت أحطم وأمزق كل شىء فيها ، ثم إذ فرغت ، عاودت الجلوس باكيًا ، وقد استبد بى أسى ممض .. أفكر لماذا التجربة تريد تعطيل مخى .. إننى لم يسبق لى الإساءة إلى هذه التجربة ، إننى حتى لم أرها .. حتى معلمة العلوم لا أنظر إليها ، وهى تقوم بالتجارب . لقد أصررت على إغماض عينى ، حتى بعد أن ضربتنى ، كى أفتحهما ، لم أفعل .. تحملت الضرب مغمض العينين .. لكم هى مخيفة معلمة العلوم .. كثيرًا ما تعمل التجارب خاصة لطلبة السنة السابعة .. سوف لن أصل إلى تلك السنة .. لن أصل .. عندما أكبر ، سأهرب .. سأهرب .. إلى أين ؟؟ لا أدرى .. سوف أسأل (حسن) عن طريقة للهرب .. لقد سمعته مرة يهدد المعلمة التى تضربه ، بالهرب .. حسنًا .. سأذهب

معه .. كلا . إن (حسن) أكبر منى .. إنه عملاق ، بطول المعلمة والمديرة .. ودائمًا يضربنى .. سيضربنى كعادته ، لو ذهبت معه .. إلا إذا أعطيته جزءًا من طعامى .. لن أهرب . ولكنى لن أدخل السنة السابعة أبدًا .. أبدًا ..

وبعد أن أفرغت شحنة الغضب التى فى داخلى .. شد انتباهى سماع اسمى يتردد .

(واحد) .. (واحد) ..

فأصخت السمع ، وتأهبت للدفاع .. ثم سمعت الخادمة تقول .. لا أدرى من هى ..

وسمعت الرئيسة تقول .. أدخليها غرفة المكتب .

وتحفزت أكثر .. فأكثر ، حتى برزت العروق من جبينى ، وتصبب العرق من صدغى . فقد تخيلت أن التجربة هى التى أتت .. ثم لم أعد أسمع شيئًا .. عم الهدوء ، ولم أسمع سوى خطوات المعلمات وهن تتبادلن التناوب على الفصول .

فعاودت الاسترخاء لشدة إجهادى .. ومن ثم بهرنى ، وأثار فزعى ما فعلته بالغرفة من فوضى وتخريب .. فجلست على الأرض أبكى مجددًا .

★ ★ ★

أما الوقائع الأولى ، فهى كما رواها صديق والد (على) .. قال :

فوجئ (عادل) ، بعد تسعة شهور ونيف من عودته إلى وطنه ، بعد إجراء التجربة المثيرة بالبرقية التالية :

- احضر إلى مؤسسة سمبسون فورًا :

ومع البرقية ، إشعار على أحد البنوك المحلية بشيك .

إن الذى يعلمه (عادل) أن المؤسسة لن تطلبه مرة أخرى ، وليس لها شأن به بعد انتهاء التجربة ، وما عليها - مؤسسة سمبسون الطبية - سوى إرسال قيمة الجائزة ، فى حال نجاح التجربة على حسابه الخاص ، الذى زودهم بعنوانه ، وإنما عليه هو أن يتصل للاستعانة بها ، فى حالة وقوع حادث له ، أو وقوعه فى حالة مرضية ، كما ينص الاتفاق الذى معه . بيد أنه قال لنفسه حالما استلم البرقية :.. لعل التجربة فشلت . إنها على أية حال رحلة سياحية ، مدفوعة المصاريف .. أليست هذه ضربة حظ ؟.. إننى فى هذه الحالة ، لم أقم بأى عمل إيجابى .. إذن مرحبًا بالفشل المتكرر ، الذى يأتى بتذاكر السفر والشيكات .

قال (عادل) هذا لأن حالته المادية لا تكاد تسد الرمق . عدا أن ليس فى ميسوره القيام بمثل هذه الرحلات الباهظة إلى الخارج ، والمكلفة بالنسبة له .

حزم (عادل) أمتعته مرة أخرى ، وطار إلى دولة (سيرال) .. هناك جاءت له المفاجأة الأخرى .. قيل له :

ادخل لترى توأمك ..

إذن التجربة لم تفشل .. وإنما استدعى لمجرد رؤيته للتوأم ..

يا لهم من كرماء .. قال ذلك لنفسه عندما دخل الغرفة .. كان يتوقع أن يشهد التوأم داخل حوض حافظ كما فهم سابقًا . ولكنه شاهد طفلًا صغيرًا ، هو عبارة عن صورة طبق الأصل ، مصغرة منه ، يرقد فى سرير طفل عادى .. وترقد فى سرير مجاور شابة فى مقتبل العمر .. ظن أنها أجنبية لشقرتها .. إنها التى تبرعت بالحمل لتوأمه .. إنه لم يرها من قبل .. لقد أنهى مهمته فى المختبر ، من ذلك اليوم الخامس والعشرين من مارس من العام الماضى .. ووقف حائرًا .. يمر فى خاطره شريط من ذكريات تسعة شهور مضت .

عندما أعلن مركز الأبحاث فى الجامعة التابعة لمؤسسة سمبسون عن حاجته لمتبرع ، أو متبرعة ، يخضع لإجراء التجارب عليه ، وذلك لإنتاج كلونيغ خاص به ، بحيث يستطيع الاحتفاظ به ، واستخدامه ، عند الحاجة الضرورية لسلامته ، كقطع غيار لنفسه ، وأنه ، أى مركز الأبحاث فى ميسوره التدخل أثناء مراحل التجربة ، بحيث يمنع تطور دماغ التوأم ، فى المراحل الأولى للنمو . ويحفظ هذا التوأم داخل حافظات أعدت لهذا الغرض ، بحيث يكون من المستطاع الاحتفاظ بهذا الكولون حيًا .. ولكن لا يقوم بأى نشاط ، من فعاليات الأحياء من تفكير وحركة ، ولكن فقط ينمو داخل الحوض نمو الشجرة ، بحيث يأخذ خلال بضعة سنين لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة فقط ، يأخذ حجم توأمه ، وذلك بموجب تغذيته بمواد كيميائية ، حتى يصبح بالإمكان الاستفادة منه بالسرعة المطلوبة . وتستمر المحافظة عليه ، لحين وفاة الشخص المتبرع ، وانتفاء الحاجة إليه ..

وأضيف إلى الإعلان .. إن ثمة فرصة ذهبية للمتبرعين الثلاثة الأوائل . ففضلًا عن حصول المتبرع على أعضاء إضافية لجسده من الممكن أن تحل محل أعضائه الأساسية التالفة ، فى أى وقت ،

دون احتمال رفض ، أو معاناة الجسم منها . عدا المخ والمخيخ ، اللذين سوف يعاملان ببعض المواد الكيميائية ، لإبطال نشاط التوأم الإدراكى والحركى .

بالإضافة إلى ما سبق ، سوف يحصل المتبرع الأول على جائزة مالية ضخمة ، مع دفع كافة مصاريف العمل ، ومن ضمنها تذاكر السفر، إن كان خارج دولة (سيرال) .

واستطرد الإعلان :

فرصة أخرى للمتبرع الأول فقط ، حيث سيقوم المعهد بحفظ التوأم ، طيلة حياة المتبرع الأول على نفقة مركز الأبحاث .

ونشر إلى جانب الإعلان ، نص القرار الذى أصدرته المنظمة العالمية لحقوق الإنسان ، ينص على أن من حق أى إنسان إنتاج قطع غيار لنفسه ، ثم أسماء الدول المنضمة إلى الهيئة ، ومن ثم المؤيدة للقرار طبعًا .

بعد ذلك شرحت التجربة العلمية ، شرحًا علميًا مبسطًا ، ذكر فيه أن التجربة تتلخص ، فى انتزاع بويضة ، ثم وضعها فى محلول خاص يساعد على نزع النواة منها ، لأنها تحتوى على نصف العدد من الكروموسومات ، ويستبدل منها نواة خلية بالغة ، من جسم الشخص المراد توأمته ، لأن الخلية البالغة تحتوى على كامل العدد من الكروموسومات ، ولا يهم مكان انتزاع الخلية البالغة من جسم الإنسان المراد توأمته ، فقد تكون من الفم أو العين أو القدم ، أو أى مكان آخر من الجسم . وتعالج نواة الخلية كميائيًا ، حتى تعود إلى حالة الطفولة المبكرة - أجنة - ويصبح فى مكنتها النمو بالانقسام ، كما فى حالة البويضة المخصبة ، ومن ثم تزرع هذه البويضة الملقحة معمليًا داخل رحم امرأة متبرعة ، مهيئة

الرحم لحالة الحمل كيميائيًا أيضًا .. هذه المتبرعة لا تستفيد شيئًا من العملية ، إلا فائدة الانتصار للتقدم العلمى ، وخدمة الإنسانية ، أو مكافأة مادية .. كل هذا يتوقف على إتمام وقف نمو الخلايا الدماغية ، فى فترة مبكرة ، وذلك بالتدخل أثناء الانقسامات الأولى للخلية لمنع تطور دماغ التوأم فى المراحل الأولى للنمو . بعد هذا يتم توليد الجنين خلال الستة أشهر الأولى . ومن ثم يصار إلى تربية هذا الكائن الناقص داخل أحواض خاصة ، أعدت لهذا الغرض . يحفظ فيها كليًا ، أو جزئيًا ، لحين الاستعمال .. ويقصد بجزئيًا . أنه قد يحتاج المستفيد إلى أحد أعضاء هذا التوأم ، لإصابته بعاهة ، كالعمى أو العرج ، أو زرع الكلى ، أو استبدال نسيج جلده لمقاومة الشيخوخة . ولكنه قد لا يحتاج إلى الباقى ، فيحتفظ به فى الحاضنة ، لحين الحاجة إليه مرة أخرى .

ويواصل الإعلان شرحه :

إن الإنسان العادى ، تتكون خليته من عدد مزدوج من الكروموسومات التى تحمل الجينات التى تحمل الصفات الوراثية الآتية من ناحية الأب ، ومن ناحية الأم .. وبناء عليه ، يكون ابن هذين الوالدين يحمل بضعة من صفات أبيه ، وبضعة من صفات أمه . وكذلك يحمل أيضًا بضعة من صفات أسلاف الطرفين . إلا أنه والحالة هذه تكون خلية هذا الكائن من عدد مزدوج أيضًا ، ولكنها آتية من ناحية شخص واحد ، وبذا يكون الإنسان توأمًا نسخة طبق الأصل منه ، يستطيع استعمالها كقطع غيار له فى حال تعرضه لعاهة ما ، دون خشية من رفض جسده له .

وتكر الإعلان . أن هذه العملية تدعى (بالكلوننيغ) ، أى التوالد من والد واحد . وأضاف : ومن أجل العلم فقط . ننقل إليكم التصور التالى للعلماء :

لو قدر لأى من التوائم أن عاش سويًا ، وكرر نفسه ، ليأتى من بعده ليكرر نفسه ، وهكذا دواليك ، لعدد من المرات ، فالابن نفس الأب ، نفس الجد ، نفس جد الجد ، إلى كذا من الأجيال . سوف يصبح عندئذ تركيز شديد في صفات الجينات الوراثية . عندئذ لا معدى من أن ينتج عنه تطابق تام للتوائم ، ليس فقط فى الشكل الجسدى ، وإنما فى الفكر ، والشعور والأحاسيس . أى أنه لو وخزت إبرة فى ذراع أحدهم لشعر توأمه الآخر بألم الشكة . ولو طرأت فكرة ما فى بال أحدهم لخطرت نفس الفكرة لتوأمه . أى كما لو كان الجميع شخصًا واحدًا ، فرق نشاط أعضائه على حيز واسع من المكان فى تحركات تلك الأعضاء . بمعنى أوضح ، ومثال مبسط على استحالته . كما لو كان هناك شخص له القدرة على أن تسافر يده إلى بلد ما ، وقدمه فى نفس الوقت إلى بلد آخر ، وإلى بلد ثالث يبقى أحد أعضائه وهكذا . فطبعًا كل عضو يتعرض لأى مؤثر ، تشعر به بقية الأعضاء على بعد أمكنتها لأنها تعود إلى شخص واحد . وهكذا بالنسبة لمجموع التوائم . والسبب كما ذكرنا شدة التركيز الناتجة فى الجينات الوراثية وتصفيتها مرة بعد مرة من صفات الأسلاف ، وذلك ناتج عن التكرار المتوالى فى التوأمة .

كما نوهت المؤسسة العلمية بنجاحها الباهر فى مجال التجارب على الحيوانات القريبة الشبه من الإنسان ، وذلك بإنتاجها توائم للقرود ، وأن نسبة النجاح مائة من المائة .

تلقى مركز الأبحاث ، العديد من ردود المتبرعين . ولكن الذى حاز صفة القبول الشامل ، بعد إجراء كل الفحوصات ، الشاب العربى البالغ من العمر الثامنة والعشرين عامًا ، والمسمى (عادل القطاف) ، وذلك لأن مواصفات جسمه ، وحالته الصحية ، والنفسية ، متوائمة مع متطلبات التجربة .

هكذا قالت النشرة الطبية ، التى صدرت بعد ترشيح (عادل) للفحص النهائى ، الذى يسبق التجربة مباشرة .

أما ، قول (عادل) عن نفسه لصديقه ذاك :

عندما كتبت خطابًا إلى مركز الأبحاث فى جامعة مؤسسة سمبسون العلمية ، عارضًا نفسى لخوض التجربة لم يخطر لى على بال ، أننى بعد الفحص سأفوز من بين عشرات المتبرعين . ولكن من مبادئى أن على الإنسان أن يقوم بتنفيذ ، أية فكرة تخطر له دون تردد ، وإن بدت له استحالتها ظاهريًا ، طالما أنه شاعر بأنه محق بها ، وأنه رأى من ورائها ، خدمة لمصلحة عامة أو خاصة . وإلا اعتبر سلبى الجانب . وكان مما عزز هذه الأفكار فى خاطرى ، أو جعلها أكثر وضوحًا ، أننى قرأت مؤخرًا فى كتاب يدعى دائرة معارف علم النفس السايكولوجية . وهو كتاب قسّم الأفراد إلى أربعة أقسام : عصبى سلبى - عاطفى مولع - عصبى إيجابى - عاطفى سلبى .. وخرجت من قراءاتى تلك ، بأن صنفت نفسى ضمن الأفراد المولعين . لما أعرفه عن نفسى من شدة المراس ، والإقدام على اتخاذ المواقف الصعبة .

وتحقيقًا لرأيى عن نفسى . كتبت سريعًا إلى مؤسسة سمبسون العلمية ، مرشحًا نفسى للتبرع ، دون أن أنتظر بصورة جدية احتمال قبولى ، فما بالك بفوزى بالمرتبة الأولى ؟. ولشد ما أثار دهشتى أن الرد يحمل تذاكر السفر إلى دولة (سيرال) ، مع شيك بمصاريف الرحلة ، مع خطاب واعدٍ بعقد يضمن حقوقى فى استعمال ذلك المخلوق النصف مصنع لاستعماله كرديف لى ، ووعد آخر بمنحى جائزة مالية ضخمة فى حال نجاحى فى اجتياز الفحوصات أولًا ، والنجاح النهائى فى إجراء التجربة ثانيًا .

وأتذكر أيضًا ، أننى قلت لنفسى حينئذ ، وأنا أقلب تذكرة السفر بين يدى مع الشيك : إنه كسب مزدوج ، ضمان ضد خطر العاهات والأمراض ، وربح مادى ، وسياحة ممتعة ، يتعذر على وأنا فى وضعى المادى المتردى أن أقوم بها . لاشك أننى مجدود . كل ذلك دون أى جهد فى المقابل ، سوى الموافقة على إجراء التجربة .. لأن الكثير من الناس فى شتى أنحاء العالم يرفضون ذلك ، لأنهم يرونها تتعارض مع معتقداتهم الدينية على اختلاف هذه الديانات . برغم أن الأجهزة فى دولهم لا ترى ما يرونه ولكن كل جديد له معارض .

عندما فزت بعد إجراء الفحوصات دون مجموع المتبرعين بالمركز الأول . لم أعزُ ذلك إلى تدخل الحظ ، إرضاءً لرأيى عن نفسى ، بل أنكرت ما يسمى بالحظ . ورددت كل ما حصل لى إلى عدم ترددى فى الكتابة إلى المؤسسة العلمية ، كما فعل غيرى ، من معارفى وأصدقائى ، حيث سخروا من الأمر كله . ورأوه ضربًا من الخيال الجامح ، أن أتوقع فوزى من دون كل المتقدمين . حقًا يجب على الإنسان أن يقدم بجسارة ، إذا ما رغب تحقيق شىء ما ، مهما بدا مستحيلًا .. وضحكت ارتياحا وأنا أردد لنفسى .. إننى مولع .. مولع ..

وكنت أتساءل : ترى من التى ستقيم بالحمل لى ..؟ لابد أن هناك ثمة متبرعات . لن يهمنى من تكون . بل لعلى لن ألتقى بها أبدًا . إن هذا من اختصاص المركز لتدبيره .

برغم أنى التقيت بها بعدئذ ، عندما قادنى الطبيب المولد ، وهو يقول :

ادخل لترى توأمك ..

إلا أننى لم أعرها اهتمامًا يذكر . حيث استولى على جل اهتمامى قول الطبيب المولد .

عليك أن تأخذ توأمك ، لأنه من غير حاجة إلى حافظة .. لقد حالت ظروف قاهرة دون توليده فى منتصف الشهر السادس ، كما هو مقرر لإجراء المزيد من العمليات عليه .. لقد جاء فى موعده الطبيعى مما جعل بقاءه فى الحوض مستحيلًا .. إن المؤسسة دفعت لك جزءًا من المصاريف ، التى كانت مرصودة لبقاء التوأم فى الحوض ، منها ثمن ركوب الطائرة ، التى أتيت بها الآن وشيك المصروفات المرفق معها .. وستدفع لك الباقى فى حال أخذك الطفل وتربيته ، تربية عادية ، أما الجائزة ، المرصودة لك عند نجاح العملية فسوف تحرم منها . لأن نجاح التجربة جزئيًا ! لست أدرى ، قد تعطى مكافأة صغيرة . إن الطفل مختل العقل .. لأنه عومل ببعض المواد الكيمائية التى تشل قدراته الإدراكية ، وهو ما يزال نطفة . وهذا سيكلفك جهدًا إضافيًا ، فى حال قيامك بتربيته .. لذا فالمؤسسة ستدفع لك جميع المصاريف المرصودة له على شكل دفعات صغيرة متوالية . أو دفعة واحدة ، حسب ما تريد .. والآن بعد أن رأيت الطفل ، تعال معى إلى مكتب المدير ، لإبرام الاتفاق الجديد .

شدهت ، فلم أحر جوابًا .. ولم أدر هل هذا الذى حدث يحمل لى شيئًا من الخير ، أو الكثير من الشر ؟

وتبعت الطبيب المولد إلى مكتب المدير .

بعد أن شد المدير على يدى مسلمًا ، ومهنئًا بالنجاح الجزئى للتجربة . قال : إن هذا النجاح فى هذه التجربة نجاح جزئى .. حيث إن ظروفًا قاهرةً ، حالت دون توليد الطفل فى الوقت

المقرر ، بحيث يمكننا حفظه فى الحافظة المعدة له ، وذلك بعد إبطال فعالياته الحركية والفكرية . ونحتفظ به حيًا فقط .. والآن لك الخيار ، إما فى اصطحاب الطفل ، وتقاضى مصاريف حضانته من المؤسسة ، بموجب اتفاق جديد ، سيعقد معك . أو ترك تربية الطفل للمؤسسة ، وعند ذلك ستكتب تنازلًا عنه ، وفى كلتا الحالتين ، سواء أخذت الطفل ، أم تركته فسوف تحرم من الجائزة المادية المخصصة لنجاح التجربة الأولى .. لأن النجاح لم يكن كاملًا ، إذا أردنا أن نلتزم بحرفية نص الاتفاق .. ولكن فى حال موافقتك على أخذ الطفل لن تلتزم المؤسسة بحرفية النص ، بل سوف تدفع لك المصاريف المرصودة لحضانته ، كما لو كانت التجربة ناجحة ، ويحفظ داخل الحافظة .

وسكت المدير لحظة .. ثم استطرد عندما لم أرد .

ستحرم فقط من الجائزة الأولى المخصصة لنجاح التجربة . ولكن سوف تعطى مكافأة مجزية ترضيك . أو خيار ثالث ، بأن يعاد إجراء التجربة لك مرة ثانية ، وهذا من حقك ، ولعلها تكون أكثر نجاحًا .. ولكنها لن تكون الأولى فى هذه المرة .. لأنها ستكون الخامسة .. لأن لدينا الآن أربع نساء حوامل فى المختبر .. وعندها لن تتقاضى أية مكافأة مالية . بل سوف تدفع أنت كل المصاريف من أول التجربة ، وحضانة الطفل فيما بعد .

لم أفهم كل كلام المدير ، لتلاحقه السريع بلغته الأجنبية .. ولجهلى بالتطورات الأخيرة للأمور . فقلت بأدب جم :

دعنا نأخذ الأمور بالتسلسل ، يا سيادة المدير .. هل تفضلتم بذكر أسباب الفشل الجزئى للتجربة . دون الخوض فى المعضلات العلمية ، لأننى لن أفهمها ؟

فقال المدير البروفيسور :

لم تفشل التجربة علميًا .. وإنما ظروف طارئة غير متوقعة ، منعتنا من إتمامها ، وبالتالى من نجاحها كليًا . لن أدخل فى التفصيل ، لأنها لا تهم موضوعنا . ولكن أقول لك ، إن المرأة التى تبرعت بالحمل لصالحك ، أصيبت بفقد الذاكرة كما تدعى .. وهربت من المركز .. واستغرق الأمر ثلاثة شهور ، حتى استطاع المركز بوسائله البوليسية القليلة من الاهتداء إليها .. كانت حينذاك فى الشهر التاسع ، فتم توليدها .

فتساءلت :

ولماذا لا يحفظ الطفل فى الحاضنة المعدة له .. ؟

فجاءنى الرد يحمل بعضًا من الاستنكار :

ليس من الممكن فعل ذلك الآن .. كيف يمكن حبس إنسان ذى طاقة حركية فى حيز لا يزيد حجمه على حجم الإنسان العادى ، إلا ببعض سنتيمترات ؟. إن هذا يميت الطفل . لأن هذه الأحواض أعدت لمن سيعامل كيميائيًا .. ابتداءًا من الشهر السادس فقط ، لتعطيل طاقاته الحركية والفكرية .. أما الآن فالطفل سوف يعيش عيشة عادية .. وإنما فقط مختل العقل .

وعدت متسائلًا :

وماذا عن استعماله كرديف لى .. ؟

فقال المدير البروفيسور :

طبعًا .. فى ميسورك ذلك ، بموجب نص الاتفاق الذى معك ، والذى هو معتمد من الهيئة العالمية لحقوق الإنسان . وتعتبر دولتك ضمنًا موافقة عليها أيضًا ، لأنها عضو فى تلك الهيئة .

وأردت أن أختبر الموقف ، فقلت :

وأن رفضت اصطحاب الطفل ؟

فقال المدير البروفيسور .

فى هذه الحالة تأخذ المؤسسة على عاتقها تربيته لحين حاجتك إليه .. ولكنك لن تستفيد من الجائزة المادية المخصصة لأول تجربة ، فى كل الأحوال . فرغنا من هذا .. ما تبقى ، أنك لن تستفيد من المكافأة المادية الصغيرة ، التى ستمنح إياها فى حال موافقتك على التعاقد مجددًا معنا ، يضمن لنا اصطحابك الطفل دونما مشاكل .

فقلت مجادلًا ، دون كياسة :

ولكن الاتفاق ينص على أن تدفع مؤسستكم جائزة نقدية قدرها خمسون ألف دولار .. بالإضافة إلى التزامها بتربية التوأم ، إلى حين حاجتى إليه .

رد البروفيسور المدير ، وقد عيل صبره :

ينص الاتفاق على ذلك .. تستطيع الاطلاع عليه للتأكد ، إذا كنت تحمله الآن .. ولكن فيما لو نجحت التجربة كليًا ، وليس جزئيًا .

رددت مجادلًا :

وما هو الفرق ..؟

أجابنى وقد فرغ صبره تمامًا :

الفرق واضح .. بالنسبة للجزء الأول من الاتفاق ، حيث يجب علينا حفظه فى منتصف الشهر السادس ، بعد تعطيل طاقته الحركية .. ونحفظه كليًا ، أو ، جزئيًا .. أما الآن فهو محتاج إلى تغذية عادية ، وتدريب .. وليس حفظ .. أما بالنسبة للجزء الثانى ، فإن النجاح جزئى ، لذا فقد سقط حقك فى الجائزة المالية الكبرى .

واشتد جدلى :

الفشل ليس علميًا ، ولكن لظروف طارئة ليس لى بها دخل ، ولم يأت على ذكرها فى نص الاتفاق .

فرد الدكتور البروفيسور حاسمًا الموقف :

على أية حال ، فى ميسورك أن تقاضى المؤسسة ، قد يكون الحكم لصالحك .. وفى هذه الحالة تقوم المؤسسة بتربية الطفل ، ودفع الجائزة الكبرى لك . ولكن إذا أردت رأيى ، كناصح ، فإنك لن تستفيد من الجائزة المادية ، لأنها ستصرف فى إقامة الدعوى ، وأجور المحامين . حتى لو ألزمت مؤسستنا بدفع المصاريف .. فهى لن تتجاوز رسوم القضايا .. فمن رأيى أن تستفيد من العرض السخى ، الذى تقدمه المؤسسة كتسهيل خاص لك .. وهو دفع المصاريف ، التى كانت مخصصة لحفظه ، وهى حوالى ثمانية وثلاثون ألف دولار ، فى حال أخذك المبلغ دفعة واحدة ، أو ألف دولار سنويًا طيلة حياة الطفل . أو حياتكما معًا .. تنتهى بانتهاء أى منكما أولا . ومن رأيى أنك لن تقوم إلا بصرف جزء ضئيل على تنشئته ، بالإضافة إلى مكافأة خاصة قدرها ألفا دولار ، التى لن تحرم منها ، فى حال اصطحابك الطفل وعدم مقاضاتنا .. أى عندما توقع معنا على العقد الجديد .

فقلت بتخوف :

ولكنى لا أملك أسرة.. فأنا عازب ، وليس لى خبرة فى تربية الأطفال ..

فقال مسهلًا الأمر على :

لا يشكل هذا الأمر عقبة .. تستطيع إلحاقه بأى من دور الحضانة فى بلدك ، كى يكون تحت طلبك حين الحاجة إليه .

- هل أطلب مهلة للتفكير إلى يوم غد ..

- تستطيع طبعًا .. فإلى غد ..

- سؤال أخير ، قبل انصرافى :

- سل ..

- هل تربية الطفل ، يشكل عبئًا بالنسبة للمؤسسة ، حتى تدفع كل هذه التسهيلات ؟

- المؤسسة لا تخسر شيئًا بالدفع لك .. لأن الميزانية ، مقدرة على هذا الأساس . لحفظ الطفل فى الحاضنة .. وأنت لا تعلم بالأموال الطائلة التى أودعت فى حساباتنا ، فور القيام بالتجارب الأولى الثلاثة .. فكل الأثرياء ، وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة ، ومن هو قادر على دفع التكاليف من الزعماء ، ورؤساء الدول ، جاءوا إلينا يطلبون عمل ردائف لهم .. إن معاملنا محجوزة ، لمدة عامين من الآن ، كى يكون فى إمكانها مباشرة أعمال جديدة غير محجوزة .. ثم كوننا نربى طفلًا عاديًا ، قد يكون أقل تكلفة مما عرضنا ، عليك . ولكن هذا ليس من اختصاصنا ، ولم يدخل تحت أى بند من بنود أعمالنا . وإنما هذه حالة طارئة شاذة .. ثم إن ما اقترح أن يدفع لك ، هو ترضية لك ، عوضًا عن الجائزة الكبرى التى فقدتها .

فقلت وأنا أشد على يد البروفيسور المدير :

إننى ممتن لنصحك إياى ..

ثم خرجت ، عائدًا إلى غرفة الطفل .

انحنيت عليه ، أنظر إليه بتمعن وأتفحصه باشمئزاز ..

طفل مختل العقل .. سيكون عبئًا علىّ .. ولكن له مهر كبير .. أيهما أفضل الثمانية والثلاثون ألفًا دفعة واحدة .. أم الألف دولار كل عام ؟. يجب أن أعيش ثمانية وثلاثين عامًا قادمًا .. إضافة إلى عمرى الآن . كى أحصل على المبلغ كاملًا .. من يدرى ، قد لا أعيش أنا هذه المدة ، أو قد لا يعيش هو .. إذن المبلغ دفعة واحدة ، أفضل ، أضف إليها الألفى دولار قيمة المكافأة على صمتى ، وعدم مقاضاتهم .. يصبح المبلغ أربعون ألف دولار .. يا لى من مجدود .. أربعون ألف دولار دفعة واحدة .. لو حصلت على الجائزة الكبرى مع إزاحة عبء تربيته عن كاهلى .. ماذا إذن .. ولكن من أين لى بمصاريف القضايا ، وأتعاب المحامين ؟ كى أقاضى مؤسسة كهذه ؟. ليس مهمًا يكفى المبلغ هذا .

ورفعت رأسى أخيرًا من على وجه الطفل .. الذى كنت أنظر إليه ولم أره بعد الوهلة الأولى .. ثم غاب عن أفكارى .. ونظرت إلى المرأة المتبرعة بحمل الطفل بدون تركيز .. إن فكرة أخذ الطفل . وحصولى على ذلك المبلغ الكبير من المال .. وخسارة مبلغ أكبر منه استولى على اهتمامى ، ولم يسترعه شىء آخر .

حتى طرق سمعى صوت ذو رنة موسيقية :

- إنه يشبهك تمامًا ..

فانتبهت فجأة .

هذا ما أسره والد (على) فى أذن صديقه عن أيامه الأولى للتجربة .. أما والدة (على) فقد قالت لى بعد أن توطدت العلائق بيننا :

آه .. لكم تثيرين أشجانى .. يا أمل .. بأسئلتك اللحوحة عن أيام أرفض استعادتها فى خاطرى .

نعم أتكر أنه كان يطيل النظر إلى الطفل ، وهو فى مهده ، نظرة ملؤها الاشمئزاز .. ثم لم يلبث أن تبين لى أنه لم يعد يركز عليه ، وسرح فى أفكاره فترة طويلة ولكن بمجرد أن رفع رأسه من على وجه الطفل ، ونظر إلى بدون تركيز أيضًا .. قلت له لمجرد إثارة الحديث معه :

إنه يشبهك تمامًا ..

فانتبه لى فجأة ، وابتسم قائلًا :

إنك أصغر من أن تكونى نفسًا .. ما اسمه ..؟

فضحكت .. لاستكثاره على أن أكون نفسًا .. وقلت :

أنا فى التاسعة عشرة من عمرى .. ثم هل نسيت أنه طفل التجارب الأولى ، اسمه (رقم واحد) .. إن أردت أن تجعل منه قطعة غيار لك ، يجب ألا تطلق عليه اسمًا .

فقال محرجًا :

ما أقل انتباهى .. إننى أعرف هذا .. لاشك أنك تظنين بى السذاجة .

ثم أردف ليبعد هذه الصفة عن نفسه :

قطعًا .. إنه لا يعدو ، أن يكون طفلًا بدون هوية .. إنه (رقم واحد) فحسب . ولكنى فكرت أنك قد تكونين أطلقت عليه اسمًا لمجرد التمييز ..

فقلت بأسى ، وقد تخلى عنى مرحى ، الذى استشعرته عند بدء الحديث معه :

هذا محظور علىّ .. لأننى حافظة نافضة فحسب .. وقد انتهى

دورى .. ليتنى لم أستعد ذاكرتى ، لكنت ربيته بعيدًا عنهم .. هؤلاء وحوش التجارب .. إنهم أحق بالحفظ داخل أقفاص الحيوانات المتوحشة .. لو ولدته بعيدًا لاحتفظت به ، وأعطيته اسمًا وهوية .

ولست أدرى ما دار من الحوار بينه وبين المسئولين ، فى المستشفى ، لأنه تساءل بسخرية :

أفقدت ذاكرتك حقًا ..؟.. هذا ما منعك من الحضور فى الوقت المحدد ..؟

شعرت بالدم يتدفق إلى وجنتى ، وفى محاولة مكشوفة للتهرب من أسئلته ، دعوته للجلوس . ودون أن يجلس .. قال متسائلًا مرة أخرى :

هل لك آراء تختلف حول هذا الموضوع الإنسانى ..؟

أجبته محتدة .. أو تدعوه مشروعًا إنسانيًا ..؟

فقال . وهو يجلس ، مستعدًا للنقاش :

ولِمَ لا .. ألم يوجد لخدمة البشرية ؟ ومحافظة الإنسان على سلامته من العاهات والأمراض ؟

- أتقتل إنسانًا لتحيى آخر ، وتسمى هذه العملية إنسانية ..

- لِمَ قمت بالمساهمة فى المشروع ، طالما أنك تنظرين إليه هذه النظرة ؟

فقلت بأسى :

عميت .. بهرنى الاكتشاف .. فلم أتبين جوانبه المظلمة ، حتى أنجبت هذا البائس المعتوه .. ليتنى لم أستعد ذاكرتى .

وكانت عبارتى الأخيرة ظاهرة الكذب .. كى أرى ردة فعله .. فقال ساخرًا :

- آه .. لو لم تفقدى الذاكرة .. لكانت التجربة نجحت نجاحًا

باهرًا .. ولكنت استلمت الجائزة كاملة .. ولكنت أيضًا تخلصت من تحمل عبئه علىّ طيلة العمر .. ولكن هل ذكرت لى الظروف التى أدت إلى فقدانك الذاكرة ؟

فقلت متجاهلة سخريته :

هذه مسألة يطول شرحها .. لندعها إلى ظرف أفضل .

فقال متشوقًا :

ولكنى سأرحل قريبًا ، مع هذا الطفل .

فشعرت بألم ممض ، قطبت على أثره وجهى ، وأنا أقول له :

إذن فقد تم الاتفاق بينك وبين المدير .. وددت لو أنك رفضت استلامه .. كنت آمل ذلك .. لكنت تبرعت بتربيته لهم دون مقابل .

فقال :

وماذا تفعلين بطفل معتوه ؟. ومع ذلك هناك أربعون ألف دولار مهرًا له .. يغرينى بأخذه وتربيته . فشعرت بانقباض أكثر ، وأنا أسأله : آه .. وهل ستستغله إذ أصبت بعاهة ما .. أو مرض ؟

- وما يمنعنى من ذلك ؟ لمدى إقرار موقع من الهيئة العامة لحقوق الإنسان .. لقد وجد للحفاظ على سلامتى .. أما فكرة قتل إنسان ليحيى آخر ، فإنها نظرية غير مقنعة .. ويجب ألا ينظر إلى الموضوع من هذه الزاوية .. إنه ليس إنسانًا طبيعيًا .. إنه إنسان مصنّع .. بل هو أقل درجة من الحيوان العادى . الذى ينحدر من أبوين .. إنه حيوان أحادى الخلية ، انقسمت بنمو يشبه نمو السرطان ، فكبر حجمًا .

ولست أدرى ما حل بى ، لسماعى تبريراته التى بدت أعنف ما تكون قسوة .. فقلت له :

إن هذه المقولة خاطئة من بدايتها .. ليست فكرة قتل إنسان ليحيى آخر فكرة نظرية . إنها حقيقة واقعة .. إنه ليس قولًا مرسلًا

على عواهنه ، خاليًا من التطبيق .. إلا إذا أنت أقدمت بشجاعة وتنازلت عن حقك المدعى فى استخدامه .. عندئذ تصبح فكرة نظرية .. ثم إنه ليس إنسانًا أحادى الخلية ، انشطرت بنمو سرطانى . وإلا لأصبح نموه عشوائيًا .. ولم يصبح بمائلك تمامًا .. إن أردت بهذا القول ، إيجاد أسباب مبررة ، لإراحة ضميرك ، فلست ملزمًا بالعدوان على الحقيقة ، كى تظهر أمام نفسك ، أو أمام الآخرين بمثل هذه المغالطة الفاضحة .. توجد أسباب فلسفية تنطوى تحت النظريات غير المؤكدة ، أى أنه فى مقدورك فلسفة الأمر على نحو يرضيك .. ثم إن القانون ، ومن بيدهم الأمر بجانبك .

ألجمه هذا الهجوم الكاسح منى .. وبما أنه لم يعرف هذه المرأة الشابة ، بمثل هذه الشراسة ، والعدوانية ، وكى لا يقحم نفسه فى مناقشة فتاة لديها كل هذا الاستعداد للمشاكسة ، آثر الصمت .. فصمت أنا الأخرى .. واستمر بيننا الصمت برهة . وأنا ما أزال مقطبة ، وهو حول بصره عنى إلى الطفل .

وهنا توقفت والدة (على) قائلة لى :

دعينى .. يا (أمل) ، قبل أن أسرد لك بقية الحكاية ، أعرفك بما سبق منها .

أنكر أنى وزوجى الطبيب اللامع فى منزل والدتى .. حيث دخل على فى المطبخ قبل إجراء التجربة بأيام قلائل . يمشى على أطراف أصابعه خلفى ، وقبلنى فى عنقى .. وأنكر أنى جفلت منه فى حركة تمثيلية مدعية الغرة ، فقلت له :

اخفتنى . مع أنى لم أخف ، لقد شعرت بخطواته المتسللة .. عدت على غير عادتك .

لم يجب على تساؤلى .. إنما قال مستبشرًا :

أتعلمين يا حبيبتى ؟. لقد أسفرت الفحوصات النهائية التى أجريت على الشاب العربى عن نجاح باهر .. ولم يتبق على ذهابك إلى المستشفى سوى أسبوع واحد من الآن ، لزرع الخلية الملقحة فى رحمك .

فقلت مرحة :

أحقًا ما تقول ؟ يا لها من تجربة مثيرة .. لم يسبقنا إليها أحد . لو طبقت سيعم الخير البشرية .. سوف لن تكون هناك عاهات ، أو أمراض .. ولكن قل لى ما هى الإجراءات التى اتخذت ، كى يعتبر هذا الكائن القادم كقطعة غيار لذلك الشاب ؟ أيصح أن ندعو هذا الشاب أبًا لهذا القادم الجديد ؟. أم ندعوه أمه .. أم ماذا؟..

وضحكت دلالًا ، حيث لازلت عروسًا ، لم يمر على زفافى سوى قلة من الأسابيع .

وأكملت قولى :

لنطلق عليه مصطلحًا جديدًا (أبم) .

وواصلت ضحكاتى الصغيرة وأنا أتحدث :

هل هناك معارضة من جهة ما ؟..

لم يلق زوجى بالًا إلى تضاحُكى ودلالى . رغم أنى فى أول أيام عرسى . وذلك لشدة اهتمامه بالحدث الوشيك . وإنما قال بجدية تامة :

أساس العمل فى هذا المشروع هو الاتفاقات المعقودة مع كل الأطراف .. ومع ذلك لِمَ تكون هناك معارضة ، إذا كان هذا العمل مشروع المستقبل ، لحماية الإنسان من الهلاك ، ومنع التشوهات عنه ؟

قلت :

يا له من محظوظ .. إنه أول إنسان تعمل له مثل هذه التجربة .. ولهذا لن يهرم ، أو يشيخ ، ما دام فى مقدوره تغيير أعضاء جسده أولًا فأولًا .. لِمَ لا تعمل أنت ؟. ضحكت - ولكن لا .. أخشى أن تبدو أصغر منى مستقبلًا .

ضحك زوجى ، لأول مرة منذ دخوله المطبخ . والتقط ورقة صغيرة من الخس ، من طبق السلطة الذى كنت أعده .. وقال معقبًا :

كما تعلمين لا يحق للعاملين فى المعهد ترشيح أنفسهم .. كل الذين اختيروا غالبًا من خارج دولة سيرال.. وعندما أريد أن أدفع المبالغ الباهظة لعمل رديف لى ، لن أقوم بهذا العمل ، وهو فى طور التجريب - ثانيًا : لست أكبر منك سنًا - قال هذه العبارة الأخيرة برغم أنه فى الثلاثين من العمر ، وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة بعد - .. ثالثًا : يمكنك إجراء عمل مماثل فى حال نجاح التجربة ، وتوفر مبلغًا من المال .. حتمًا سوف نحصل على تسهيلات مادية أكثر بصفتى عاملًا فى المركز .

فقلت محتجة :

أأقوم بالحمل ثلاث مرات - للعربى - ولك - ولى ؟

رد :

وماذا فى ذلك .. يمكنك هذا .. أو قد نجد متبرعة تقوم عنك بالحملين الآخرين ..

فقلت بضيق :

ولماذا عرضتنى للحمل الأول ؟

كنت غير مقتنعة تمامًا بما سأقدم عليه ، من القيام بالتبرع برغم انبهارى بالتجربة .. ولولا ضغط من زوجى ، وإغراؤه لى ، بأننى

سوف أفيد مستقبلًا من هذا الإجراء ، وأننى سوف أصبح مشهورة ، على مستوى عالمى .. لما وافقت ، مما كان له أسوأ الأثر على نفسيتى تجاه زوجى فيما بعد .

عندما سمع قولى ذاك ، ظهر الضيق على وجهه ، وقال بجدية تامة :

لقد أبرمنا اتفاقًا مع مؤسسة سمبسون الطبية ، ولا يمكن نقضه فى مثل هذا الوقت الضيق .. والبحث عن بديل لك تقوم بالحمل ، والتجربة على وشك التنفيذ ، إن هذا يعرض التجربة للتأجيل .. ومن ثم يعرضنا للمساءلة القانونية . ثم لو فكر أحدنا بطريقة جدية فى عمل توأم له ، فسوف يجد التسهيلات المادية لذلك ، على اعتبار أن كلًا منا ..

فقاطعته :

أنا الذى تبرعت دون مقابل .. أما أنت فتتقاضى مرتبك أول كل شهر ..

فقال معاتبًا :

ما الفرق ؟. لقد قدمت زوجتى ، وليس من السهل على أن أجشمها هذا الجهد بدون مقابل .. ولكننى فعلت خدمة للعلم .. ولابد أن يكون له أثر حسن لديهم .. لا تنسى أننا تنازلنا عن مبلغ ضخم ، لو استعانوا بأية متبرعة أخرى .

فقلت فى إصرار على موقفى :

لم تخسر شيئًا .. رقيت فى عملك بمجرد أن وقعت أنا العقد .

فقال مهادنًا :

ما الفرق؟. ألسنا وحدة واحدة .. ثم إن الحمل أمر طبيعى بالنسبة للمرأة .. ومع ذلك لا تنسى أنك تبرعت خدمة للعلم .. وسوف يدخل اسمك التاريخ من أوسع أبوابه .

إلى هنا أنهت أم (على) تكرياتها قبل أن يقفز تفكيرها متجاوزًا الأحداث ، بعد هذه الوقفة فى المطبخ مع زوجها الطبيب فى جامعة سمسون .

قالت مستأنفة ما سبق :

وأنا فى غرفة العمليات .. وقد تم إجراء العملية بنجاح مذهل ، زرعت البويضة المنزوعة النواة الملقحة بنواة الخلية البالغة فى داخل رحمى المهيأ لحالة الحمل .. إن البويضة تعود لى أيضًا . ولكن لا تحمل أيًا من صفاتى ، بعد أن أفرغت من نواتها .. قام علماء التجربة بإجراء سلسلة من الإجراءات لمنع تطور مخ النطفة ، ومن ثم رقدت فى المستشفى ، تحت الملاحظة الدقيقة ، لحين يتم توليدى ، فى منتصف الشهر السادس . وحفظ الجنين فى الحوض المخصص له .. وبعد أن تبين طبيعية الحمل .

إنه بدون أية مضاعفات وقد ظهرت أعراض الحمل علىّ . رقدت تحت رعاية مخففة .

وركض الجنين فى بطنى ، فى ذلك الحين كانت مشاعرى متغايرة ، متضاربة .. ففى الفترة التى أفكر فيها أننى لست إلا أداة حاضنة ، تقوم بدورها ، وتنتهى منه بانتهاء الحاجة إليه .. عند ذلك تتبلد مشاعرى ، ..أما فى اللحظة التى تغيب عنى هذه الفكرة ، فإننى أنغمس فى فورة من الحنان الطاغى تجاه الجنين الذى يركل فى بطنى ، فلا أشعر إلا ويدى تمسح على بطنى بعطف وحنان بالغين .. ثم أعود فأسحب يدى قلقة .

وتحت ردود فعل متناقضة ، وانفعالات وأحاسيس متضاربة ، عشت أتعس لحظات حياتى فى ذلك المستشفى الرهيب .

ودون وعى كامل بما أفعل . ولا إدراك سليم بمغبة ما أفعل هربت من المستشفى الخاص بمؤسسة سمبسون الطبية ، ومن

منزل الزوجية ، ومن بيت والدتى .. اختفيت تمامًا ، عن أعين كل من له صلة بمؤسسة سمبسون الطبية ، وعن جميع معارفى .. اختفيت تمامًا بحملى العزيز ..

وصمتت والدة (على) لحظة عن سرد ذكرياتها غارقة فى لجة من الأفكار .. عدت أجذبها معى ، فقلت متسائلة :

هه .. وبعد ذلك ؟

فقالت :

آه .. يا (أمل) .. إنها لتعذبنى الذكرى .. ولكن لا بأس طالما أن هذا يريحك ..

واستطردت :

هناك فى المستشفى ، بعد أن تم القبض علىّ ، وتم توليدى فيه .. التقيت أول ما التقيت بـ(عادل) ، كما ذكرت لك .. وبعد حديثى العصبى معه ، لم يحاول إثارتى مرة أخرى بأى حديث آخر .. فساد الصمت بيننا نحن الاثنين .. أنا منغمسة فى لجة من الأفكار السوداء تجاه الطفل المسكين ، متصورة مصيره أمامى .. ولولا سعلة طفيفة من الطفل أعادتنى إلى الواقع المحيط بى .. فنظرت إلى الشاب العربى .. استغربت كم من الدقائق استغرقت جولتى فى خواطرى .. وهو لا يزال مستمرًا ينظر إلى الطفل .

أحس بوقع نظراتى عليه .. فتأهب للإنصراف .. بدا لى كارهًا أن يفتح معى موضوعًا للحديث . ولكن عاجلته بقولى ، بعد أن لمعت فى ذهنى فكرة مضيئة :

لا شك أنك تود سماع قصة فقدانى لذاكرتى .

دهش لسرعة تقلب مزاجى . ولكنه أحرج أن يذكر ذلك صراحة وإنما قال فى كياسة :

إذا لم يكن فى هذا إرهاق لك ..

فقلت :

فى الحقيقة إننى جد متعبة .. ولكن تستطيع إعطائى عنوانك ببلدك .. وسأكتب لك بالتفاصيل .

لاحظت أنه ليس متحمسًا لسماعها إلى هذا الحد .. ولكنه أحرج من الرفض ، فأخرج بطاقة عليها اسمه وعنوانه ، وبعد أن أضاف إليها اسم دولته ومدينته قدمها لى ..

قال لى فيما بعد إنه فى تلك اللحظة ، رأى أننى فتاة لا تشغلها المشاغل ، متقلبة الأهواء ، تارة تحمل تبرعًا وتارة تهاجم الوضع الذى تبرعت من أجله .. وأخرى تتبرع برواية القصص .. وقال إنه بعد أن تناولت البطاقة من يده وحيانى وخرج ، نسينى بمجرد خروجه من الغرفة .

أما صديق (عادل) فقد قال :

بعد خروج (عادل) من المستشفى بعد رؤيته توأمه ، بات ليلته فى فندق الأمباسادور ، على حساب المؤسسة العلمية . عمره كله الذى مضى لم يحلم مجرد حلم بمبيت كهذا .. أين هذا من غرفته الضيقة فى منزله المتواضع ، الذى ورثه عن والدته ، آخر ما تبقى من جذور أسرته ؟. تكر لى أنه استلقى على السرير ، الفسيح عاقدًا ذراعيه تحت رأسه ، فوق الوسادة اللينة . سابحًا فى أفكار وردية .. غدًا سيغادر إلى وطنه .. وبصحبته الطفل المعتوه ، والأربعون ألف دولار .. يجب أن يستثمر هذا المبلغ .. كم من الأفكار المربحة التى راودته طيلة حياته ، ووقف إيجاد رأس المال عقبة كأداء فى وجهه ، كموقف حصان حرون .. حسنًا الآن سينفذ .. مشاريعه ، واحدًا إثر واحد .. إنه لن يتردد أبدًا .. يجب أن يكون غنيًا بمجرد إنتهاء السنة الأولى .. لقد ذكر لى أنه جلس على السرير ، وأضاء النور ، وجعل يكتب فى مذكرته ما يجب

عليه عمله .. سيبدأ فى مشروع ذى ربح بسيط ، ولكنه سريع المردود كى يستطيع الوقوف على أرضية تجارية ، .. سيقوم بفتح عدد من البقالات ، ذات الاستهلاك اليومى السريع .. وبعد تثبيت رأس المال ، وتوفير ربح مناسب يفتح ناديًا للطيران .. كم راودته أحلام حول ذلك المشروع .. ناد للطيران ـ طائرات للأولاد وللكبار ـ تسيير عجلات بخارية ـ رالى للسيارات .. سيجعل جزءًا من ذلك النادى ، مقاهٍ لبيع المرطبات ، ومطاعم ، سيتحول شيئًا فشيئًا إلى ملهى كبير ، يضم جميع فروع التسلية ، سيحدد رسمًا زهيدًا لدخوله ، كى يكثر الإقبال عليه .. ولكنه سيربح من بيع الأشياء التى بداخله .. ثم أخذ يحسب رؤوس الأموال فى مشاريعه ، والأرباح التى سيجنيها .. ولم يخطر له الطفل على بال طيلة ليلته .. ولم ينم سوى بضع ساعات ، ونهض مبكرًا .. وبرغم أنه لم يأخذ قسطًا كافيًا من النوم . إلا أنه لم يشعر بالإرهاق .

أعلن (عادل) لمدير المؤسسة العلمية بموافقته على اصطحاب الطفل ، والحصول على المبلغ دفعة واحدة وغادر سيرال ..

حالما حط (عادل) فى بلده ، أودع الطفل دار رعاية أهلية صغيرة لتربية اللقطاء والينامى .. أودعه تحت رقم (واحد) ، حسب ما جاء ذكره بالأوراق الرسمية التى يحملها .. متفقًا مع صاحبة الدار على أن يدفع مبلغًا من المال أول كل شهر ، فى مقابل رعاية الطفل . وغادر الدار ولم يعد إليها أبدًا بعد ذلك .

استغرقت (عادل) أعماله التجارية ، وفتحت أمامه أبواب الرزق الواسعة على مصراعيها ، وكاد ينسى رقم (واحد) . وماذا يعنى بالنسبة إليه ، لولا المبلغ الذى يدفعه أول كل شهر ، عن طريق مندوب دار الأيتام ، لما تذكره قط .. وحتى لا يشغل نفسه بهذا الرقم غير نهجه ، فأخذ يدفع المبلغ كاملًا أول كل عام ، خاصة وقد أصبح المال يجرى بين أنامله جريان الماء العذب .

ونسى (عادل) مركز الأبحاث العلمية ، ونسى مغامراته معهم ، بالرغم من أن سبب غناه هو مبلغ الأربعين ألف دولار ، التى كانت بالنسبة له مفتاح مشاريعه .. ولولا بعض شذرات من الأخبار التى تنشر فى الصحف المحلية بين آن وآخر عن أخبارهم ، وعن مدى النجاح المذهل الذى أحرزته تلك المؤسسة فى توفير قطع الغيار للأفراد .. ولولا الصور التى تنشر للكولونات داخل الأحواض الحافظة ، بأحجام مختلفة ، تبعًا لتقدمهم فى السن ، لما طرأ له على بال ، أى خاطر يخص توأمه .. ولكنه عندما استعرض إحدى تلك الصور . وكنت أنا جلبتها له . قال :

لابد أن توأمى أكبر من كل هؤلاء جميعًا .. إنه رقم (واحد) .. إنه أكبرهم سنًا . ولكنهم قد يكونون أكبر منه حجمًا ، للتغذية المكثفة التى يتغذونها من المواد الكيميائية .. لقد قيل لى عندما كنت هناك ، إنه فى نحو الثلاثة أو الأربعة أعوام يأخذ الطفل منهم الحجم الطبيعى المساوى لحجم توأمه ، كى يسرع فى الاستفادة منه . أما (رقم واحد) ، فلن ينافسهم فى ذلك ،لأن غذاءه طبيعى .. ويحتاج عمرًا كى يصبح فى مثل حجمى .

وتحسس أعضاءه .. إنها كلها سليمة معافاة .. وهو لا يزال فى الخامسة والثلاثين من العمر ، فى أوج صحته وشبابه ، إذن رقم (واحد) فى السابعة من عمره الآن ..ضحك ، وقال :

طفل مجنون .. احتياطى لى .. أرجو من الله ألا أضطر إلى الاحتياج إلى استبدال دماغ ذلك الطفل بدماغى .

ضحك مرة أخرى فى توتر ، وهز رأسه .. نافضًا الفكرة ، كما نفض رماد سيجارته فى المنفضة التى أمامه .

ألقى بالصحيفة تحت قدمى ، وكأنه يلومنى لتقديمها له .. ونهض يشعل الموقد للتدفئة .. وبدأ فى خلع جواربه ـ إنه يتخفف من ثيابه

وأنا معه دون أن يشعر بالحرج ، لشدة شعوره بالصداقة نحوى . بل كثيرًا ما أمسك بى كى أبيت ليلتى معه ، قد يكون مرد ذلك إلى أنه ليس له أقارب أو أهل .. وكنت أنا أيضًا متعلقًا به .. وهو وايم الحق لم يبخل علىّ بأى شىء طلبته .

نادى (عادل) مديرة منزله ، لإحضار عشائنا .. واستلقى على الأريكة مفكرًا .. وفكرت أنا أيضًا .. إنه حقًا إنسان ناجح ، يستحق الفئة التى صنف نفسه فيها ، بجدارة تامة ـ مولع ـ ضحكت ، فسألنى عما يضحكنى فلم أرد عليه .. ففرق مرة أخرى فى أفكاره .

ـ مولع ـ لقد أصاب كبد الحقيقة ، بما حققه من النجاح فى كل عمل قام به . منذ استلامه مبلغ الأربعين ألف دولار ، منذ سبع سنوات ، إنها مدة قصيرة قياسًا لجنى الملايين التى جناها .. لعل غيره لو تسلم نفس المبلغ لم يثمر بيده ، كما أثمر بيد (عادل) .. إن مرد كل هذا النجاح إلى قدراته الذاتية . لقد زاده النجاح ثقة فى نفسه ، والثقة بالنفس تولد الثقة بالآخرين . نظرت إليه إنه مستعرض على الأريكة ، راضيًا كل الرضى .

عندما دخلت علينا مديرة المنزل تحمل صينية العشاء .. وضعتها أمامنا على المنضدة الصغيرة .

عندما نكون أنا وهو فقط ، نأكل فى أى مكان نجلس فيه ، ولا نتقيد بالبروتوكول ، كما لو كان معنا آخرون .

قالت مديرة المنزل :

جاءت سيدة شابة تسأل عنك .. تركت هذه الورقة ..

تناول عادل الورقة من يدها . وقرأ ما بها (سلمى سالم الزعبوب) وبها رقم هاتف أيضًا .

أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل .

قال للمديرة .. كيف هى ..

ـ شابة على قدر كبير من الجمال ، فى نحو الثامنة أو السابعة والعشرين من العمر ..

استعرض أمامى جميع معارفه من النسوة القديمات والجديدات منهن . ولم يتذكر أحداهن بهذا الاسم .

وضع الورقة على الأريكة ، وتساءل موجهًا الحديث إلى المديرة :

ألم تقل شيئًا آخر ..؟

ردت المديرة :

ـ قالت إنها ستمر غدًا .. فى نحو الساعة الخامسة مساءً .

فحص مذكرته ـ كان مرتبًا جدًا فى أعماله ومواعيده ، لا يترك شيئًا للصدفة ـ فوجد أنه مرتبط بموعد فى الخامسة والربع مساءً .. إن عليه أن يقابل مدير شركة كبرى للاتفاق معه على صفقة تجارية .. إن هذا أهم فى نظره من أى موعد مع أجمل نساء الأرض قاطبة .

فقال للمديرة :

إننى مرتبط غدًا .. دعيها تمر على فى المكتب ، بعد غد الساعة العاشرة صباحًا .. واتصلى تلفونيًا بالسكرتيرة ، لضبط هذا الموعد ، فى حال موافقة هذه (السلمى) عليه .

ونحن نلتهم العشاء ، قلت له :

لعلها إحداهن .. إن شبابك ووسامتك ، ونجاحك ، يستهوى الكثيرات منهن .

وكأنى فى قولى هذا ، عبرت عن رأيه فى نفسه ، حيث اتسعت ابتسامته موافقًا على قولى ، وعلق :

ولكنها دون شك أكثرهن جرأة ، فى طريقة تعرفها على .. رقم

هاتفها ، أتظن البلهاء أننى سأجرى حديثًا هاتفيًا معها ؟. فتيات اليوم . ولكنى سألقنها درسًا فى إعراضى عنها ـ وضحك ـ لعل لها جمالًا لا يقاوم .. وهذا فيما يبدو عزز ثقتها بنفسها إلى هذا الحد .. مهما يكن ، سأحطم هذه الثقة ـ وضحك مرة أخرى ـ لعبة جديدة .

وقد قال لى فى اليوم التالى إن التفكير فى الفتاة ، ظل يطن فى رأسه مع كل لقيمة من عشائه .. ولكن بمجرد أن ألقى بنفسه ، على السرير ، استغرق فى إغفاءه سريعة . لم تلبث أن تحولت إلى نوم عميق بعد قليل من الوقت .

كنت عنده فى الليلة التالية ، وكان لدى فضول لم يتخل عنى طيلة عمرى .. فسألت (عادل) عما تم مع صاحبة الوريقة المبهمة صباح اليوم .

ضحك قائلًا :

جاءتنى فى الساعة العاشرة تمامًا ، كما حددت لها الموعد ، مما يدل على أنها ملتزمة فى مواعيدها ، وحالما دخلت ، نهضت مرحبًا بزائرتى الجديدة . وأشرت إلى كرسى قريب من مكتبى قائلًا بأدب جم : تفضلى ..

جلست الشابة الغريبة حيث أشرت .. صامتة لبرهة ، يبدو عليها الحرج . كانت أنظارى أثناء ذلك متجهة إليها ، فاحصًا مدققًا . إنها جميلة حقًا ، كما وصفتها مدبرة منزلى .. ترى كيف أدير الحديث معها ؟. ليتنى أجد الخيط الأول .. ولكنها قطعت حبل أفكارى بقولها :

تبدو أنك لم تتذكرنى بعد ..

فوجئت بقولها ذاك . فأجهدت ذاكرتى بحثًا عن وجهها فلم أجده .. لزمت الصمت ، فلم أعقب على قولها خجلًا من مصارحتى بنسيانى إياها . وخوفًا من مغبة الكذب ، لو ادعيت أنى أتذكرها .

ولذا فقد ابتسمت ، وسكت عاصرًا فكرى .. قطعًا ليس لى بها علاقة سابقة وإلا لتذكرتها ، لست أنا على هذا الحد من تدهور الذاكرة .. لماذا تفترض أننى أتذكرها لمجرد أننى رأيتها عند أحد معارفى ؟. ترى أهى بنت لأحد المدراء لإحدى الشركات التى أتعامل معها ؟. جاءت لتتفاوض معى لصفقة ما ؟ لعلها تريد أن تخضعنى لسحر جمالها ، قبل البدء فى التعامل مع أبيها . إن البعض منهم لا يتورع عن دس السم فى الدسم .. لقد خاب فألها ، وفأل من بعثها أيضًا .. إننى لست من هذا النوع من الرجال الذى يخلط الجد بالهزل .. أم ..

وقطعت حبل أفكارى ، باستئنافها القول على حين غرة :

أنا التى تبرعت بالحمل لك ..

قفزت من الكرسى كالملدوغ .. فاغرًا فاىَ .

أوه .. حقًا .. لم أكن أعلم أن اسمك (سلمى) .. لقد ارتبط بذهنى أنك أجنبية ولست عربية .. خاصة وأنك تحدثت معى فى المرة الأولى والأخيرة التى التقينا فيها بلغة أهل سيرال .

فردت الشابة الحسناء :

هو ذاك .. فأنا سيرالية ، ولكن أبواى من أصل عربى .. لذا ترانى أجيد العربية ، بالإضافة إلى لغتى الأصلية .

عدت إلى الجلوس على مقعدى وراء المكتب ، بعد أن تبينت أن ليس هناك سبب لوقوفى .. وران علينا الصمت مرة أخرى .

تذكرت أنها أخذت عنوانى القديم ، منذ ما يقارب الثمانى سنوات ، لتخبرنى شيئًا .. أى شىء ..؟

آه .. عن سبب فقدها الذاكرة .. الذى كان سبب تأخر الحمل فى بطنها .. وهنا حمدت الصدفة التى فعلت ذلك .. وإلا ما حصلت على الأربعين ألف دولار . نواة أعمالى التجارية الناجحة ، وسبب

غناى الفاحش الآن .. ثم عدت متذكرًا أن هناك جائزة كبرى فقدتها بسبب فقدانها الذاكرة .. لا يهم أصبحت النتيجة واحدة - ضحكت فى سرى - من تزاحم أفكارى فى خاطرى ..

ماذا جاء بها الآن ؟ علها جاءت لتقص على تلك القصة ، وضحكت فى سرى مرة أخرى .

لا .. لا يعقل أن تجشم نفسها كل هذا العناء من أجل ذلك فقط .. وإذا كان إخبارى عن تلك القصة يهمها إلى هذا الحد .. فلم لم تفكر فى الكتابة إلىّ كل هذه المدة ؟

ولكن لم جاءت الآن ؟.. لِمَ احتفظت بعنوانى القديم طيلة هذه السنوات ؟ وهنا طرأ لى أن أسألها ، وقد وجدت مفتاحًا للحديث :

أظن أن عنوانى القديم ضاع منك ، دون ريب لطول المدة .. كيف اهتديت إلى معرفة مكانى ، مع أنى غيرت العنوان ؟

فقالت بصوت موسيقى ، يشبه صوت مراهقة :

أبدًا .. احتفظت به مع أوراقى المهمة .. واستعنت به للوصول إلى عنوانك الجديد .. لقد استخدمت الاسم فى البحث فى دليل الهاتف طيلة نهار وليلة أمس فى الفندق . خاصة وأنا لا أقرأ العربية بصورة جيدة .

فقلت باستغراب عفوى :

ولماذا كل هذا الاهتمام .

بدا على السيرالية الحيرة لفترة وجيزة .. ثم بادرتنى بسؤال آخر بدلًا من الرد على سؤالى :

كيف حال الصبى ؟

فقلت باستغراب ، فالسؤال لم أتوقعه :

أى صبى ؟..

صبى التجربة .. (رقم واحد) ..

- آه .. لست أدرى ، إنه فى الملجأ .. أدفع له كل أول سنة مقدمًا ، لذا تريننى لا أعرف من أخباره شيئًا ، إلا من سنة لسنة .

لقد كذبت دون وعى منى فى عبارتى الأخيرة .. إننى فى الحقيقة لا أعرف أخباره حتى من سنة لسنة .. لأننى فقط أدفع إلى الدار عن طريق مندوبها ، دون أن أجشم نفسى عناء السؤال عنه . ولم أسأل عن مسخ ؟ يكفينى أن أعلم أنه حى فقط ..

فقالت الفتاة :

فى أى ملجأ وضعته ؟

رددت بحذر :

ما شأنك أنت بهذا ؟

فقالت بسرعة وكأن الرد على طرف لسانها :

لقد كلفت بمراقبة التطورات التى حدثت له .. وتقديم تقرير عنها لمراقبة التجارب المبدئية وأثرها الفورى .. فأنت تعلم أن الطفل منهم تجرى عليه سلسلتان من التجارب : إحداهما وهو لا يزال نطفة .. والثانية فى منتصف الشهر السادس بعد توليده .. وهو الوحيد الذى أجريت له تجربة واحدة .. وهو نطفة .. لذا فالمركز يهمه معرفة أثر التجربة الأولى .

وبما أننى أجهل طبيعة صلتها بالمؤسسة .. كما أنه لم يعد يهمنى معرفة أى شىء عن مؤسسة سمبسون العلمية . لذا فقد أعطيتها عنوان دار الأيتام بكل سهولة .. فشكرتنى ، ونهضت محيية وانصرفت .

ولكن ياصديقى ، بعد أن غادرت ندمت على تسرعى ، وعدم تيقنى من الأمر بطلب أوراق ثبوتية قولها ، وندمت أيضًا على أنها لم تأت لى شخصيًا . وندمت مرة ثالثة لعدم سؤالى إياها عن

الظروف التى أدت إلى عدم إتمام التجربة فى حينها ، قبل ما يقارب الثمانى سنوات .

ونسيت تمامًا ، أننى كنت أشك فى تلك الظروف .. وأنها ظروف مفتعلة .. ألجمت لسانى .. حصلت على ما تريد ، وغادرت سريعًا .

إنها ياصديقى من اللواتى لهن خاصية فريدة ، أشبه بالجذب المغناطيسى ، خاصية غريبة فعلًا ، تخضع من حولهن لما يردن ويرغبن ، إذا لم تكن فى حال انتباه وتحفز مضاد .

ولكنه عاد ، فهز رأسه ساخرًا من أفكاره ، مستخفًا بالأمر كله ، وواصلنا التهام عشائنا .

★ ★ ★

قالت المشرفة الاجتماعية لدار الأيتام :

كنت مع جمهرة المعلمات والمديرة ، الواقفات أمام الباب الموصد على (رقم واحد) . نحاول جهدنا تهدئة ثائرته ، التى لا نعرف لها سببًا واضحًا . وهو يهز الباب ويضربه ، ويصرخ بصوت منكر .

عندما حضرت الخادمة تنبئ المديرة ، بأن هناك زائرة فى غرفة المكتب .

وكان ذلك يحدث نادرًا ، فلا زيارات خاصة لذوى النزلاء ، فيما عدا اليوم المخصص للزيارات ، وهو يوم الجمعة من كل أسبوع .

- وبما أننى المشرفة الاجتماعية ، فمن واجبى مصاحبة المديرة عند حدوث مثل هذه الزيارات المفاجئة .

تفضلى .. تفضلى .

قالت المديرة ، مشيرة بكفها إلى شابة رائعة الجمال ، لها حضور قوى بين من يحيط بها .. فجلست الزائرة الغريبة على المقعد المشار إليه . وقالت :

فى مؤسستكم طفل يحمل (رقم واحد) .. وقد أتيت من قبل والده فأرجو السماح لى برؤيته .

فقالت المديرة فى ارتباك .. حسنًا .. وكأنها تقول فى نفسها لماذا فى هذا الوقت غير الملائم ؟

ولكنها لم تجد بدًا من أن تضغط الجرس ، وعند دخول إحدى الخادمات .. طلبت منها استدعاء إحدى المعلمات فورًا .. ولم تكد هذه تحضر حتى قالت لها .. وهى تضغط على مخارج الحروف

لبيان أهمية الأمر ، الذى ينطوى على إيعاز غير واضح المعنى إلا للذى يعرفه :

السيدة من قبل والد (رقم واحد) .. أعدى الطفل جيدًا .. ثم اصطحبيه لتراه .

ارتبكت المعلمة ، وترددت ، تريد أن تبين صعوبة الأمر .. ولكن نظرة المديرة الحادة ألجمتها . فخرجت .

اجتمع ثلاث من المعلمات ، فتحن الباب على الطفل ، فهالهن ما هى عليه الغرفة من فوضى وتخريب .. ولكن أيًا منهن لم تكلمه خشية إثارته .. نودى على إحدى الخادمات لكنس المزبلة ، التى أحدثها الطفل .. ونقل إلى الغرفة على عجل فراش وأغطية نظيفة من أقرب غرفة إليه .

وعندما أعدت الغرفة ، نودى على السيدة .

اقتدتها أنا .. ومشت المديرة معنا ، ثم تخلفت قليلًا ، ولم تكمل السير إلى الغرفة ، متظاهرة بإعطاء بعض الأوامر إلى العاملين ، كى تتجنب الدخول إلى غرفة الصبى .

وقفنا أنا وهى على عتبة الغرفة ، لاحظت أن الغرفة بهيئة نظيفة مرتبة جدًا .. ولكن الصبى يبدو فى فوضى ، شعره مشعث . عيناه محمرتان ، ووجهه مصفر .. يداه وشفتاه ترتعشان .. يبدو أنه فى حال من الرعب والعذاب النفسى يرثى لها .. تركتهم وخرجت ..

وأتمت (سلمى) تكرى ذلك الموقف . فقالت :

فكرت وأنا أرى هيئته تلك أنه ربما خائف منى .. بل لعلى أول زائرة له .. يقول أبوه (الأبم) :

- ضحكت فى سرى رغم صعوبة الموقف - إنه لا يعرف من أخباره إلا من سنة لسنة .. حسنًا .. ها قد رأيته .. هذا الطفل الذى حملته ، وسجنت ، وطلقت .. وخسرت كل شىء من أجله .. وأنا لم أبق معه إلا أسبوعًا واحدًا .. نفس ملامح أبيه ، اتضحت أكثر عن يوم مولده .. ولكنه أكثر براءة منه .. بل أكثر رعبًا .. كم هو خائف .. يبدو أنه فى محنة .. لِمَ ..؟

قلت بصوت مسموع :

سعدت صباحًا .. يا ..

ولم أتم عبارتى .. لا يليق أن أعطى طفلًا كهذا رقمًا ..

ولم يرد ، تذكرت أنه معتوه .. فقلت :

حسنًا .. كيف أنت .. ألا تعرف الكلام ؟

فجأة ، رد بتحد واضح :

أعرفه .. أفضل منك ..

فانبسطت أساريرى من السرور ، ودون وعى منى وجدتنى قائلة :

أوه .. إذن فأنت لست معتوهًا ؟..

فرد بعصبية ، متحفزًا للمهاجمة :

إنها أنت المعتوهة .

بان العجب عليه ، لأننى لم أزجره ، بل قلت له :

الحمد لله .. لقد كان قلبى يحدثنى بأننى سأجد أفضل طفل فى العالم ..

فسكت الطفل وتخلى عن تحفزه للهجوم .. وتحولت نظراته العدائية إلى مزيج من الدهشة والخوف .

بعد ذلك ولجت الغرفة .. اقتربت منه فى محاولة منى للمسح على رأسه .. ولكنه تباعد عنى ، والتصق بالحائط .

فقلت له :

لا تخف ، لم آت لإيذائك .. لقد أتيت من قبل أبيك ..

أردت بذلك القول ، إدخال الطمأنينة إليه ، ولكن جاءت النتيجة عكسية تمامًا .. حيث أخذ فى الصراخ وهو مغمض العينين .. وازداد دفعًا للحائط بمنكبيه ، كأنه يريد الدخول فيه :

التجربة .. كلا .. كلا .. كلا ..

دهشت ، ووقفت فى منتصف المسافة ، متباعدة عنه كى أريحه من الضغط على الحائط ، الذى يروم الدخول فيه . وقلت :

من أخبرك أنك ابن التجربة ؟.. إن أباك (عادل سعد القطاف). وأنا .. أنا التى حملتك وولدتك أى أنا بمثابة أمك .. تعال .. يا ..

وسكتّ مرة أخرى . وقد ضاق فمى بالرقم فلم أستطع التلفظ به . سكت .. وسكت الطفل ، يدير فى عقله ما قلته .. لم يكن فى قدرته أن يفهم ما أرمى إليه ، بعدما رسخ فى ذهنه أنه ابن التجربة . فلم يعرف من هو (عادل) . لقد اتضح ذلك لى .. لعله يظن أن (عادل) هو اسم للتجربة .

اقتربت منه مرة أخرى . فهرب من لمسة يدى إلى الحائط المقابل .. إن الطفل فى حالة رعب . لا بد أنه يلقى معاملة سيئة .

فتشت فى حقيبة يدى ، قدمت له قطعة من الحلوى . كنت أعددتها له من قبل ، ولكنه رفض استلامها .

جلست على السرير ، وتظاهرت بالحزن لعله يرق لى ، ثم عدت ومثلت له دور الفرح . لإدخال السرور على نفسه . ولكن سيان . رفض كل محاولة منى للتقرب إليه .. بقيت معه ساعة كاملة دون جدوى . وأخيرًا قلت له :

حسنًا .. أنا ذاهبة الآن .. سأزورك غدًا .. ماذا ترغب أن أجلب لك معى ..؟

ولما لم يجب ، أشرت له بيدى مودعة ، وخرجت .

قالت لى المديرة :

كيف رأيته ؟. إنه طفل عنيد مشاكس ..

فقلت متسائلة :

إنه صحيح العقل .. أليس كذلك ؟

- بل إنه بارع الذكاء .. لو أنه يتخلى عن عناده .

فقلت دون تقدير منى لردود الفعل .

يبدو أنه يتلقى معاملة سيئة . بالنسبة له فقط .. وهذا الذى يعنينى .

فامتعضت المديرة من هذه الملاحظة ، وقالت :

لو لم يكن عندنا منذ ما يزيد على سبع سنوات ، لما قبلت طفلًا كهذا .. إنه عنيد مشاكس ، لا ينصاع للأمر ، أبدًا .

ودون انتباه منى قلت بلهجة المرشد :

لا أعتقد أن الأوامر المستديمة تخدم دائمًا فى تربية الطفل .. إن هناك وسائل وأساليب متبعة هى أكثر جدوى وفعالية من ..

وكانت هذه العبارة خطأ فادحًا وقعت فيه . حيث استشاطت المديرة قائلة :

لست مبتدئة ياسيدتى ، كى تخبرينى ، كيف تكون الأساليب التربوية .. إذا كان السيد (عادل) لا تروقه طريقتى .. يستطيع

أخذ هذا الطفل العنيد إلى مؤسسة أخرى ، لعلها تجيد ، الأساليب التى تكرتها أفضل منا .. إنه حتى لم يسأل عنه طيلة ثمانى سنوات .. فلمَ الآن فقط لمْ ترقه طريقتى ؟

ومع أنى لم أحدد أساليب التربية فى حديثى معها كما ادعت .. إلا أننى سارعت إلى القول :

لم أقصد توجيهك ياسيدتى .. طبعًا فأنت أكثر دراية منى ، فهذا ضمن تخصصك .. كما أنى لم أقصد أن الأستاذ (عادل) غير مقدر جهودك .. ولكن كان من رأيى أن يعطى الطفل اسمًا غير (رقم واحد) ..

وأجابتنى المديرة بنفس حدتها السابقة :

إن هذا ليس من شأننا .. لقد أدخل بهذا الرقم .. كما أننى قبلته بصفة خاصة مرضاة لوالده .. إن أية مؤسسة أخرى لن ترعى طفلًا كهذا ، بدون هوية ، أو اسم ، وإنما هو رقم فحسب .. ألا تعلمين أنه بدون هوية .. وأن الأستاذ (عادل) لا يعتبره ابنا له ، وإنما مجرد توأم ، وجد كاحتياط له .. قطعة غيار ليس إلا ؟

فقلت :

أعلم ذلك طبعًا .. ولكن يجب ألا يعلم الطفل بذلك ، كى يصبح سلس القياد .

فقالت وهى مازالت مقطبة :

لم نخبره نحن .. ولكن ما يدرينا أنه سمع بذلك من زملائه التلاميذ ؟..

فقلت ملحة :

حسنًا لنطلق عليه اسم (على) .. كى لا يشعر أنه يختلف عن غيره .

- وهل سيطلق عليه هذا الاسم بصفة رسمية ؟.

- كلا لم أقل ذلك .. وإنما فقط كاسم للشهرة .. أما فى السجلات الرسمية ، فليكن (رقم واحد) .. وأما فى التعامل اليومى ليكن اسمه (على) فلا ضير من أن نطلق عليه اسم (على) .

فقالت المديرة بشك :

وهل الأستاذ (عادل) يطلب ذلك ؟

ونظرًا لمعرفتى بأن الأستاذ (عادل) لا يعرف عن أخبار الطفل إلا من سنة لسنة ، كما قال . فقد كذبت وأنا مطمئنة .

- قطعًا لم آت بجديد من عندى .. كما أرجو تحسين الأسلوب معه .. إذا سمحت .. أرجوك .. قطبت المديرة حاجبيها ولم تجب .. فقلت لها :

حسنًا .. سوف أزوره بعد غد .

قالت المشرفة الاجتماعية :

لم تكد (سلمى) تغادر الدار . حتى أدارت المديرة قرص الهاتف ، تطلب (عادل) فى مكتبه . آخذة فى اعتبارها أن تسبق (سلمى) قبل أن تصل إليه وقالت لى وهى تدير القرص :

يجب أن أسبقها قبل أن تقدم تقريرها .. إنها ستشكو معاملة الدار للصبى .. إنها لا تعرف إلا ما رأت .. لِمَ أرسلها لنا بعد كل هذه المدة ؟ هل هناك من أفضى إليه بشىء ؟

وعندما رد قالت له بعصبية على طريقة (ضربنى وبكى ، وسبقنى واشتكى) :

ما هذه التى أرسلتها لنا ؟ .. إننا نعرف عملنا ياسيد (عادل) ، دون توجيه من أحد .. إذا أحببت الاطمئنان على الصبى .. تعال أنت بنفسك .. أو أرسل أخرى أكثر كياسة ، ومعرفة بالالتزام بحدود اللياقة .. حسنًا .. سنطلق عليه اسم (على) ، كما تريد ..

ولو أنى لا أعرف لِمَ لمْ تختر له الاسم إلا الآن .. قد لا يستجيب له بعد أن كبر .. وهو كما تعرف عنيد مشاكس .

فيما يظهر أن (عادل) فوجئ فى مبدأ الأمر بصوت المديرة .. الذى لم يسمعه منذ أكثر من سبعة أعوام .. ولم يستطع أن يستوعب محدثته بسبب ، كليماتها السريعة المنفعلة ، وعباراتها المتلاحقة .. ويبدو أن لهجتها العصبية لم تدع له فرصة للسؤال ..

أما (عادل) فقد ذكر بعد ذلك ، أنه تداعى إلى ذهنه صورة مقابلته لـ(سلمى) ، وهى تطلب منه عنوان الدار التى أودع بها الصبى ، عندئذ عرف صوت محدثته ، وألم بموضوع الحديث ، وعرف عمن تتحدث . فصاح بها مهلًا .. مهلًا يا سيدتى .. أنا لم أرسل أحدًا من قبلى .. ولم أتدخل فى طريقة تربية الطفل ، كما لم أطلب تغيير اسمه .

فقالت المديرة ، وقد زالت عنها العصبية بسرعة ، واتسمت لهجتها بالدهشة :

إذن من هذه التى جاءت .. إنها تقول إنها أتت من قبلك ..

لم يرغب (عادل) فى توضيح هوية زائرته .. وإنما قال مصرًا .

لم أرسل أحدًا من قبلى .. وإذا جاءت هذه المرأة مرة أخرى ، أو أى أحد غيرها ، مدعيًا أنه من قبلى بدون إشعار هاتفى منى ، فأنا أخولك . بل وأصر على رفض استقبالهم بخصوص الطفل .. وبما أن الطفل بدون هوية ، فليبق بدون اسم ، هذا شىء مفروغ منه .. وإذا جاءتك هذه المرأة مرة أخرى مدعية أنها من مركز الأبحاث الذى قام بالتجربة ، فاطلبى منها مستندات تثبت أنها حقًا جاءت من قبلهم ، وما عدا ذلك فاطردیها .. لا تعرضى الطفل لأى خطر مهما كان نوعه .. بل وأعتبرك مسئولة عنه فى حالة حدوث

أى شىء له .. سوف أزيد مخصصاتك من أجله . لأنه كبر ، ويحتاج حتمًا إلى تغذية أكثر .

حسن .. حسن .. يا سيدى .. ستجرى الأمور كما تريد ..

وقالت المديرة كأنها تكلم نفسها بعد أن أقفلت الخط :

من هذه المرأة ؟. ولم هى مهتمة بالطفل ؟ أهى من مركز الأبحاث حقًا ؟

أما (رقم واحد) فقد قال عن ذلك اليوم :

قضيت نهارى بعد ذهاب المعلمة الجديدة من عندى ، وجزءًا كبيرًا من ليلتى قبل أن يغلبنى النوم فى حال من السكون المستغرب . متطلعًا إلى فجر اليوم التالى كى يشرق النهار ، كى أحظى بزيارة المعلمة الجديدة ، كما وعدتنى .. لقد ذكرت لى أنها سوف تعود فى الغد .. إنها أخبرتنى باسم أبى .. إن أبى ليس هو التجربة .. إذن لماذا يقال لى : لعنت التجربة التى أتت بك ؟ وتنكرت قولها إنها بمثابة أم لى .. إذن أين أبى الحقيقى ؟ واختلطت الأمور ، مستعصية على الفهم فى ذهنى المكدود .. وتنكرت أيضًا أنها قالت حملتنى وولدتنى .. إذن هى أمى .. وشعرت بحنان جارف نحو تلك المعلمة الجديدة ..

وبقدر ما يستوعب عقلى الطفولى من الأمور .. فأنا لم أميز بين أن تكون المرأة زائرة لى أو معلمة جديدة ، أو أم لى .. فقد اختلطت هذه المعانى فى ذهنى اختلاطًا عجزت معه عن الفصل بينها .. ولكن الذى استشعرته بوضوح ، رغبتى الشديدة فى استعجال غدى كى تأتى كما وعدت .

فى النهار التالى ظللت متوترًا .. أرهف السمع لكل خطو مترقبًا زائرتى الرحيمة دون جدوى .. فهى لن تأتى بعد ذلك قط ، كما صور لى ذهنى الصغير . فانكفأت على نفسى فى حسرة وألم بالغين .

ومع ذلك لم تكن أسباب حزنى وحسرتى واضحة دلالتهما فى عقلى .

أمسكت بطرف سلسلة الحدث من فم صديق (عادل) .. قال :

بعد ثلاثة أيام . فوجئ (عادل) بدخول (سلمى) العاصف إلى مكتبه بعد مشادة كلامية مع السكرتيرة ، التى تحاول منعها من الدخول ، قبل أخذ الإذن منه .

ولسبب لا يدريه ألجم لسانه عن عبارات التأنيب التى كان يرددها أمامى فى حال رؤيته لها مرة أخرى .. قد يكون دخولها العاصف هو السبب .

ولم تدع له مهلة للتفكير ، فقد بادأته بالهجوم قائلة له بانفعال ووجهها شديد الاحمرار ، يكاد الدم يطفر من خديها القانيين .

لماذا طلبت منهم طردى .. ألم آت كى أستأذنك فى زيارته ؟. لِمَ لم ترفض وقتها .. هل هذا تصرف لائق يا سيدى ؟.

فقال عادل مقطبًا :

أولا ، لم تأتى للاستئذان .. لقد جئت لمعرفة عنوانه .. ثم إنك كذبت بأدعائك أنك من مركز الأبحاث .. ويحق لى أن أسلمك للسلطات لقيامك بالاحتيال .. كما أنى أحملك المسئولية كاملة لو جرى للطفل أى حادث اختطاف .. أو غيره .

فهدأت سلمى من لهجتها ولجأت إلى المراوغة .

لم أختطفه ؟. هل ينقصنى المزيد من الأعباء .. كما أننى لم أكذب عليك تمامًا .. فأنا فعلا من معهد الأبحاث .. وهذا كارت العضوية .

قدمت إليه البطاقة ، ولما نظر إليها (عادل) . أعادها ساخرًا :

إنها لم تجدد منذ ثمانى سنوات .. لقد بطل سريانها ياسيدتى .. على أية حال حصل خير .. حسنًا .. ليقف الأمر عند هذا الحد ، كأن شيئًا لم يحدث .

فانتهزت (سلمى) فرصة هدوئه النسبى .. وتضاحكت فى دلال قائلة :

هل أزعجتك إلى هذا الحد .. أرجو المعذرة ، لم أكن أعرف أن الأمر يغضبك .. لقد وددت فقط الاطلاع على نتائج التجربة الأولى .. من باب الفضول .

فقال عادل خجلًا :

لا .. أبدًا .. لم يكن الأمر بهذا السوء .. ولكن مديرة المؤسسة غاضبة لتوجيهاتك إياها .. وهددت بطرد الطفل .. إضافة إلى أننى فوجئت بانتحالك النيابة عنى فى زيارته .. وهذا يسبب لى إشكالًا كبيرًا .. لو رفضت هذه المؤسسة إيواءه .. لأن الطفل بدون هوية ومن الصعب إيجاد دار أخرى تقبله .

وكانت (سلمى) لا تزال واقفة .. فتدخلت مشيرًا إليها بالجلوس . فالتفتت إليه مستأذنة .. وقد تحولت فجأة إلى هجوم مضاد بعد أن فشل هجومها الأول :

أتسمح ؟.

فأشار بيده محرجًا إلى كرسى قريب منه :

تفضلى .. تفضلى .. لم أنتبه إلى وقوفك كل هذه المدة .

وضغط الجرس طالبًا شايًا ليقدمه لها تكفيرًا عن معاملته الجافة .

فجلست (سلمى) مرتاحة .. وضحكت مرة أخرى . ضحكة فاتنة . وهى تقول :

لو كنت فى سيرال ، لوجدت مؤسسات لا تحصى تقبله .

- نأسف .. أننا لم نكن هناك .

قال عبارته بلهجة مبطنة بالسخرية .. وتغاضت هى عن سخريته فقالت :

إن مديرة المؤسسة حمقاء حقًا .. لو كنت رأيت كيف تعامل الصغار . لأساءك الأمر ، أشد السوء .

فرد باقتضاب : يبدو ذلك .

ورمت آخر حجر فى بئر الجمود ، علها تحرك ساكنه . فقالت :

إننى لعلى استعداد ، لقبول الطفل ، وتربيته تبرعًا دون مقابل .. إن لم تجد غير هذه الدار .

فنظر إليها مضيقًا عينيه ، وقال بهدوء :

محال أن أعهد به إليك .. ألا تتذكرين أنك فقدت ذاكرتك وأنت حامل به .. قد تفقدينها مرة أخرى حين الحاجة إليه .

قال عبارته الأخيرة بسخرية أكبر .. فلم تحر جوابًا ، وقد فهمت مغزى كلامه .. إنه يخاف هروبها بالطفل عند ما يحتاج إليه .

وجىء بالشاى . فأخذت ترتشفه على مهل . وقد بدت لناظرى أنها تبحث عن مدخل آخر لمواصلة الحديث .. إلا أن أجوبة (عادل) المقتضبة ، وقفت حائلًا دون استرسالها .. يبدو أنها مصرة على ألا تخرج من مكتبه حتى تحصل على السماح لها بزيارة الطفل .. ولكن بعد إصراره على الصمت .. فقدت الأمل ..

ولما فرغت من شرب الشاى . ولم تجد ما تقوله ، أو تفعله نهضت مودعة وانصرفت .

أخذ (عادل) بعد انصرافها يفتح أحد أدراج مكتبه ، ويغلقه ليفتح آخر ، كأنه يبحث عن شىء فقلت له عمّ تبحث ؟

قال وهو ينظر إلى مكانها الشاغر ، ويهز رأسه كأنه يطرد كابوسًا .

يا لها من فتاة جميلة .. فضولية .. لحوحة .. أرجو ألا أرى

وجهها مرة أخرى .. إننى أشم عطرها فى أجواء المكتب .. إننى أبحث عن عطر آخر لأطرده عن أنفى .

فقلت : يا لها من فاتنة ..

رد بتحفز :

ولها جذب مغناطيسى .. إننى خشيت على نفسى منها ، خشيت أن أضعف ، فأسلم لها بما تريد .. لم أشعر بمحضر امرأة أخرى مثلما شعرت بمحضرها .. أتصدق أننى خشيت على نفسى منها .. ووجدت صعوبة كبيرة فى التظاهر بالبرود والغطرسة .. عندما ذهبت ، أحسست كأن شيئًا ما يغلفنى قد أزيح عنى .. وأنت ما انطباعك عن هذه المرأة ؟

ضحكت قائلًا :

لا يقل عما أحسست به أنت .. ولكنها لم تلق بالًا إلىّ .. كان جل اهتمامها موجهًا إليك .

- ولذلك كان زخم سحرها منصبًا علىّ أكثر ..

وضحكنا معًا طويلًا ..

أما (سلمى) فقد قالت عن ذلك الحدث :

فعلًا ، كل ما ذكر كان حقًا ، فقد كنت عنده ، أنظر إليه ، وهو مكب على تصريف أعماله التجارية متجاهلًا وجودى تجاهلًا يكاد يكون تامًا ، بدا لى ، فى تلك اللحظة مثالًا لرجل الأعمال الناجح ، بالإضافة إلى شبابه ووسامته ، ونضوج شخصيته . أخذت أنظر إليه بإعجاب شديد ، ولشد ما تمنيت أن أجذب انتباهه ، أو يكون لى تأثير عليه .. لم أكن أعلم طبعًا ، أن لوجودى قربه فعل السحر أو المغناطيس كما ذكر صاحبه . فى الحقيقة كثيرًا ما قيل لى عن هذه الخاصية من الرجال الذين أصادفهم ، الخاصية المغناطيسية - ولكنى لم أصدقها أبدًا عنى ، وكنت أعتبرها مجاملة لى ، شديدة

الرومانسية . إلى أن سمعتها تقال من قبل صديق (عادل) عن لسانه بعيدًا عن مسمعى .

لقد خرجت من لدنه ، وأنا فى حالة من انعدام الوزن ، يائسة من مقدرتى على رؤية الطفل مرة أخرى ، بعد أن طردتنى رئيسة الدار ، وبعد مقابلة (عادل) الأخيرة لى ، والتى كانت تتسم بالجفاف والجفاء ، بحيث لا تشجعنى على معاودتها مرة أخرى .

استمررت ما يقارب الثلاثة أيام أضرب أخماسًا فى أسداس .. أنا لم أتجشم كل هذا العناء وأقطع كل هذه المسافة كى أعود بخفى حنين ، إلى بلدى .. ثم هذا الطفل ما ذنبه ؟. خاصة بعد ما تبين لى أنه فى محنة . وأنه سوى العقل .. ولقد أسهمت فى إيجاده على هذا الكون .. وكلما خطر لى أنه عرضة فى أية لحظة لتقطيع أحد أوصاله ، أكاد أجن .. إلى من التجئ .. هل هناك ثمة من يسمعنى . إن القانون ضد هذا الطفل ، والعلم الذى أنتجه لهذا الغرض .. والناس أيضًا .

فكرت فى إحدى نوبات اليأس التى انتابتنى ، أن أذهب إلى صديق (عادل) ، الذى رأيته عددًا من المرات عنده ، وعرفت كم هو حميم بالنسبة له . ولكنى تراجعت .. إن هذا الصديق لن يفعل شيئًا يخالف رأى صاحبه . وإنه لا يزيد عن كونه (إمعة) ، ملتصقًا به ليل نهار يقتات على فتاته ، يؤمن على حديثه ، ويصادق على آرائه .

إذن يجب أن أعتمد على نفسى فحسب .. ركبنى العناد كعادتى .. إننى شخصية لا تهزم بسهولة .. كثيرًا ما رددت لنفسى ذلك .. ويجب إثبات ذلك الآن . كان الدافع الحقيقى لإصرارى ، ليس إثبات الذات كما كنت أدعى أمام نفسى ، بأننى شخصية لا تهزم .. إننى عجزت عن تبيان السبب الحقيقى لكل ذلك الإصرار

حتى الآن .. وإن كان نجاحى فى كل ما أبتغيه هو شخصيتى التى لا تهزم .. ولا زلت مصرة على ذلك .. ليس مهمًا .. نعد .. كنت فى ذلك اليوم فى حالة نفسية لا تطاق بعدما أحصيت ما فى حقيبة يدى من نقود تكاد تنضب وأنا أقطن بهذا الفندق التعس .. ودون تخطيط أو تدبر .. أمسكت بسماعة الهاتف .

ردت السكرتيرة .. فطلبت الأستاذ (عادل) .. ولكنها اعتذرت بأنه غير موجود ، وطلبت منى أن أترك لها اسمى أو رقم هاتفى .. ولكنى أجبت بسرعة . سوف أتصل به لاحقًا .

حمدت الصدفة لأنه غير موجود .. حيث ليس فى ذهنى أى موضوع مرتب أحدثه فيه .. ماذا سأقول له .. أأشتمه ؟. أأرجوه ؟. كلًا .. كلًا .. إنها فكرة جديدة . لا بأس بها سوف ، أقدم له اعتذارًا عن خطئى .. ولعل ذلك يكون فاتحة لحوار جديد .

ونمت ليلتى أتلظى .. وفى الصباح ، لم تكد الساعة تشير إلى العاشرة حتى التقطت سماعة الهاتف .. وجدته . بعد تحية سريعة . قلت له :

إننى أقدم خالص اعتذارى عما بدر منى .. وما سببته لك من إزعاج ، سواء لك شخصيًا ، أو لإدارة المدرسة التى بها رقم (واحد) .

فرد بكل برود :

لا بأس ، لقد سويت الأمر .. ونسيته .

فقلت مصرة على مواصلة الحديث :

لعلك لا تعلم مقدار العناء الذى تجشمته حتى أصل إلى هنا .. ولذلك كنت متلهفة على رؤية نتيجة التجربة التى أسهمت فيها .

فقال بنفس لهجته السابقة :

هأنت أشبعت فضولك ورأيته :

قلت :

آه .. إنه فضول كلفنى غاليًا .. خمس سنوات من السجن ، وغرامة كبيرة .. وخراب بيتى .. ولذا ترانى .

فضحك لأول مرة ، وقاطعنى مرققًا من لهجته وساخرًا فى نفس الوقت :

لماذا كل هذا .. لماذا كوفئت على عملك الإنسانى بالسجن ؟..

فرحت .. أخيرًا ، استطعت شد انتباهه .. ضحكت أنا الأخرى فى مجاراة . وقلت بلهجة الشاكية لقريب مقرب :

أرأيت ..؟.. سجنت كأننى ارتكبت جرمًا ، وليس عملًا إنسانيًا .

وسكت فترة وجيزة على الخط المفتوح لأعطى وقتًا لسريان المفعول للهجتى الشاكية . ثم استطردت :

لقد كانت حججهم فى مقاضاتى ، أننى لم أنجبه فى الوقت المحدد ، أى بعد ستة أشهر .

فعاود السخرية :

ما ذنبك .. ألم تفقدى الذاكرة ..؟

فضحكت بكل ما أملك من طاقة الرقة والدلال .. ولم أجب تساؤله واستمررت :

وطلقنى زوجى للسبب نفسه ..

فقال باهتمام :

كيف .. كيف ..؟

ضحكت مرة أخرى ضحكة مكشوفة المعنى :

هل ترى أن الهاتف وسيلة تفى بالغرض للإجابة على كل هذه الأسئلة ؟..

فهم .. ورقص إبليس بين عينيه :

حسنًا .. أتقبلين دعوتى للغذاء ..؟

فقلت بلهفة أظنها لم تخف عليه :

متى ؟. وأين ؟..

- غدًا ، فى المكان الذى تفضلين ..

أجبته : بدلال :

حسنًا سوف أمر عليك فى المكتب غدًا الساعة الواحدة .. وبعدها نفكر أين ..

ضحكت طويلًا بعد وضعى سماعة الهاتف .

وقع .. لقد وقع ..

رددت لنفسى . عليك بالخطوة التالية ياامرأة .. عليك إثبات وإحكام القبضة عليه ، ومع ذلك لم يكن فى ذهنى أية خطة محكمة واضحة المعالم .. كنت أسير إلى هدفى ، دون أن أعرف الطريق المؤدية إليه .

ولكنى فرحة .. وفى نشوة الفرح ، خطر لى أن أقفز إلى دار الأيتام ، كى أرى الصبى . ولكن كيف ؟ ، هل أتوسل إلى الرئيسة .. هممت بذلك .. ثم كررت متراجعة . قد تتصل هذه الرئيسة الحمقاء بـ(عادل) . فيتقوض ما كاد يبنى بيننا من جسور .. لا .. لننتظر .. لننتظر !!

فى تمام الساعة الواحدة ظهرًا من اليوم التالى . كنت أقف بسيارة الأجرة أمام أبواب شركة (دينار العالمية) الضخمة .

نزلت فى أبهى زينة لى ، لا ريب كنت أعرف مقدار جمالى ، ومقدار تأثيره على من يحيط بى ، فنزلت من السيارة واثقة الخطى ، يسبقنى عطرى ، وكان اليوم يومًا عاصفًا مليئًا بالغبار ، حيث تزحف ذراته الثقيلة على الأرض الأسفلتية ، وتتطاير ذراته الخفيفة متعلقة فى الجو ، كما تتطاير جزيئات الدخان فى الفضاء ، فتحجب أشعة الشمس الحارقة . وقد تشعث شعرى ، فكنت أعيده إلى ترتيبه السابق بخضة من رأسى أو مسة من يدى .

ولجت المدخل الواسع ، ويدى على شعرى والأخرى على أسفل ركبتى كى لا يندفع ثوبى متسلقًا أسفل بطنى .

وهناك أمام السكرتيرة ، انتصبت على غرة منها . أطلب مقابلة المدير العام .

- هل هناك موعد سابق ؟..

نعم أبلغيه من فضلك .

قلت ذلك بتحد ، حيث لم أنس المشادة التى كانت بينى وبينها قبل أيام .

هناك على مائدة الغداء .. قصصت عليه كيف أحببت الطفل ، وهو لا يزال جنينًا فى أحشائى .. وكيف حاولت إقناع زوجى الطبيب فى مؤسسة سمبسون للأبحاث العلمية على مساعدتى ، لإلغاء عملية الإجهاض . ولكنه ، أى ، زوجى رفض وأصر على الالتزام ببنود الاتفاق ، قائلًا ، إن ذلك حتمًا سيعرضنا للمساءلة القانونية .. ثم إن الطفل سوف يخرج للعالم معتوهًا .

ثم كيف هربت غير مقدرة نتائج عملى .. ثم كيف قبض علىّ ، وأودعت المستشفى الخاص بالمؤسسة ، لألد بصورة طبيعية كما هو معلوم .. وكيف قامت المؤسسة بمقاضاتى ، بحيث أدى الأمر فى النهاية إلى الحكم على بدفع مبلغ مالى كبير للمؤسسة كتعويض ، أو السجن خمسة أعوام ، نتيجة لتدخلى فى برنامج عمل المؤسسة التجريبى الأول بالتخريب .. وبما أنه ليس فى ميسورى دفع مثل ذلك المبلغ ، فقد سجنت .. ثم كيف أقيل زوجى من عمله فى المؤسسة العلمية للسبب نفسه ، برغم أنه لم يساعدنى على الهرب ، وليس له به علم مطلقًا . ونتيجة لكل ذلك طلقنى زوجى ، وأنا ما أزال فى السجن .

سكت لحظة ، لأرى تأثير حديثى . وكنت صادقة فى كل

ما قلت .. وعندما لم أتبين أى رد فعل أعقبت ضاحكة .

فقررت أن أرى الولد الشقى ، الذى سبب لى كل هذه المآسى ، فخرب بيتى - وضحكت مجددًا - ثم إن السفر له فوائد جمة . اعتقد خمسة كما تقولون فى آدابكم .

أما وجهة نظر (عادل) فى جلسة الغداء تلك ، كما نقلها صديقه :

كانت تتكلم بصوت منخفض النبرة ، له رنة موسيقية ، هو صوتها العادى فيما بدا لى ، ودون افتعال أو تكلف ، كانت روحها مرحة ، وتصرفها حقيقى لا زيف فيه ، فلم تحاول أن تتصنع انفعالاتها ، وكانت تضحك أثناء وصفها للآلام التى تعرضت لها أثناء هربها ، والضغوط النفسية التى صاحبتها أثناء سجنها ، وتطليقها من زوجها ، وكأنها تروى نكتة تخص غيرها .. مما أسبغ عليها ، وهى جالسة هكذا ، متكئة على حافة المنضدة ، وممسكة أسفل صدغيها براحة يديها ، مظهر البراءة والبساطة وسلامة الفطرة ، أو هكذا بدا تأثيرها على .. أصغيت إليها مدة ليست بالقصيرة مأخوذًا بجمالها ، معجبًا بخفة روحها ، متحفظًا فى الوقت نفسه عن البوح بإعجابى بها . كنت أختار كلماتى بدقة وعناية .. وأخيرًا سألتها .

والآن هأنت قد جئت ها هنا ورأيت وسمعت عمن كان سبب كل المآسى التى حدثت لك .. ماذا أنت فاعلة ؟.. فهل فى نيتك مقاضاته كما قاضوك ؟..

وضحكت على النكتة ، وقد بدت لى سمجة . ولكنها ضحكت هى الأخرى . وقالت :

لا شىء ..

فقلت :

هل مازالت عوامل الأمومة تعتمل فى داخلك نحو الولد ؟..

لا أدرى ، هل فطنت إلى ما فى سؤالى أو قالت ما قالت بعدم مبالاة كما بدا لى حينذاك ؟

لو كنت أمه الحقيقية لسلوته بعد كل هذه السنين .. ثم إنه معتوه .. لقد رأيته إنه معتوه .

فسألتها مرة أخرى :

وإن لم يكن معتوهًا ؟..

قالت (سلمى) معقبة على سؤاله ذاك .

كانت أسئلته واضحة الدلالة ، حيث لم يلجأ للمناورة لاستشفاف الحقيقة ، فلم أجد عناء كبيرًا فى دحض مخاوفه وإشعاره بالاطمئنان .. رددت عليه .

لن يغير من الأمر شيئًا .. هذا خاص بك وحدك .. فى الحقيقة لم آت من أجله فحسب .. لقد عقدت العزم على السفر بعد خروجى من السجن ، لضيق مجال العمل أمامى .. بعد أن تقطعت بى الأسباب وتقطعت الأواصر التى تربطنى فى سيرال ، بعد وفاة والدتى ، وطلاقى من زوجى .. وأنت لابد أنك تعلم ، أنه مهما طال زمن بقائى فى بلدى سيرال ، أعتبر مغتربة فيها ، لأن الأساس هو اغتراب أمى وأبى ، حيث ليس لى أقارب ولا جذور هناك . ففكرت فى عمل هجرة معاكسة ، أنتخب فيها مقرى الجديد . وقررت أنه لن يكون إلا فى بلد عربى .. فرشحت عددًا من البلاد العربية ، لأبدأ بها جولتى ، وكانت بلدك من البلاد المتصدرة لقائمة الترشيح لأسباب منها إشباع فضولى ، ومنها دراسة إمكانية البقاء فيها بعد إيجاد عمل ما .. وإلا فسوف أرحل إلى بلد عربى آخر .. وهكذا إلى أن يقع اختيارى على إحداها .

لاحظت انبساط أسارير (عادل) وزايله تحفظه ، وأول بادرة لذلك أنه مد يده ، محاولًا الإمساك بيدى القريبة منه على المنضدة ، والتى كانت تعبث بمناديل الوق .

تنكرت قول أمى .. إن أردت السيطرة على مشاعر الفتى الشرقى ، وخصوصًا العربى ، فكونى أكثر شرقية منه . سحبت يدى متجاهلة محاولته . وقلت :

شكرًا ، على دعوتك .. فى الحقيقة أنا لا أعرف أحدًا من أهل البلد .. لذا جاءت دعوتك لى كالقشة التى يتعلق بها الغريق .. وأنا غريقة الوحدة ..

قلت ما قلت ، كى أبين به سبب تلبيتى دعوته بسهولة ولهفة .. فقال :

حقًا .. لا تنوين العودة إلى بلدك سيرال ؟.

سكت لحظة . وصعدت زفرة عميقة قبل أن أجيب :

فى الحقيقة لا أعلم .. هذا يترتب على أمور كثيرة .. إننى أكره العودة إلى هناك .. أصبحت وحيدة .. ومن أرباب السوابق . وهذا فى حد ذاته يعرقل مسيرة حياتى . وأولها الالتحاق بعمل ما . لقد بعت منزل والدتى التى توفيت وأنا فى السجن . أظن قلت لك ذلك . بعته بمجرد خروجى من السجن مباشرة ، قبل شهرين ، ولدى مبلغ لا بأس به .. أستطيع به تدبير أمرى إلى حين عثورى على عمل .

ـ ها هنا ..؟

فقلت بدون حماس :

ها هنا .. أو فى أى بلد عربى مجاور . أو بعيدة عن هنا .. المهم ألا أضطر إلى العودة إلى سيرال ، حيث القوانين الصارمة .. والأبواب الموصدة فى أوجه أرباب السوابق ؟

فقال :

لماذا لا تعودين إلى بلد أجدادك ؟.

فقلت متسائلة :

تقصد بلد أمى وأبى ؟. أصل نشأتهما ؟. إذا كان هذا قصدك ،

إن بلدهما العربى ، لا يعدو فى نظرى أن يكون مثل أى بلد عربى آخر .. كنا ضمن اللوبى العربى فى مستوطننا (سيرال) ، ولم نكن جميعنا نفرق بين بلدنا الذى انحدرنا منه ، وأى من البلاد العربية .

ففاجأنى بسؤال ، غير سياق الحديث :

ألا تنوين التبرع بالحمل مرة أخرى ؟.

وضحك ، وضحكت مجاراة له . وأجبت :

لا أحد يقبلنى ، بعد الذى عملته فى حملى الأول .. ثم إننى أرفض ذلك لو عرض علىّ ..

ـ لماذا ؟..

ـ أخشى أن أحبه مرة أخرى .. فأهرب به ؟.

ـ يا له من محظوظ ..

ـ من ؟..

ـ الذى تحبينه ..

تجاهلت إشارته . ولم أعلق .. فاستطرد هو :

أم أنك ترفضين من الناحية الإنسانية ، كى لا يموت أحد ، ليحيى آخر ؟..

فقالت متعجبة :

أوما تزال تذكر نفس العبارة .. سبع سنوات مرت على هذه المقولة .. لقد كنت وقتها مجرد طفلة لم تصقلنى التجارب .. هل أنا أكثر إنسانية من فطاحل العلماء الأطباء ؟ ومن عموم المشتركين ؟.. هل أنا أكثر إنسانية منك مثلًا ؟ ثم إن الأطفال الذين يولدون لا يدركون .. الموت والحياة بالنسبة لهم سيان .. أتعلم كم عملية استبدال أعضاء تمت فى (سيرال) . لقد تم استبدال عين أحد المشتركين بعين توأمه . والآخر أجريت له عملية زرع قلب ،

أما الثالث فقد استبدلت أصابع يده اليمنى .. لاحظ ، كم هى الفائدة العائدة على هؤلاء المشتركين المساكين لولم يكن لهم توائم ؟ عندئذ لأصبحوا من ذوى العاهات المستديمة ، أو ماتوا .. إن الصحف هناك قامت قائمتها ولم تقعد بعد ..

استثير (عادل) ، وتحسس أعضاءه فى حركة تلقائية خفية ، لم تخف علىّ . ولكنى تجاهلتها ، وأتممت قائلة :

هل اطلعت على هذه الأخبار .. إن الكولون يتم تكبير حجمه فى مدة قليلة جدًا لا تزيد عن الستة أو الخمسة أعوام ، والعلماء يأملون فى مزيد من التجارب لضغط هذه المدة إلى زمن قياسى أكثر .. لا شىء يصعب على هؤلاء العلماء .

كنت أناضل لربطه بموعد آخر .

.فقال باهتمام :

لم أطلع على أى من هذه الأخبار ، حيث كنت فى الحقيقة مندمجًا فى أعمالى التجارية ، فلست متتبعًا لأقوال الصحف بصورة مستمرة .. الديك شىء من هذه الصحف ؟

نهضت .. يجب أن أذهب إلى الفندق .. لقد تأخرت ..

فقال :

لِمَ العجلة .. أريد أن أراك مرة أخرى .. على الأقل لأطلع على الصحف إن كان لديك شىء منها ..

رقص قلبى طربًا .. ولكنى سيطرت على الموقف ، فقلت بعدم اهتمام :

سوف أحضرها لك فى المكتب . وإن لم أجدك ، سأتركها لدى السكرتيرة . قد تكون بعض جوانبها ممزقة .. لقد طويت بها الكثير من أشيائى .. لو كنت أعلم لأحضرت لك رزمًا عن كل ما تحويه عن هذه المواضيع .

فقال مغيرًا من خططى :

سأزورك فى الفندق الذى تنزلين به ..

ـ سميراميس . غدًا الساعة الخامسة مساء .

ـ دعيها ، فى الثامنة ، بعد خروجى من المكتب ..

أوصلنى إلى الفندق فى عربته الفارهة . وقلبى يرقص بين ضلوعى ، كشعرى الراقص فى الريح عندما نزلت منها عابرة الساحة إلى الفندق ، ومع ذلك لم يكن قلبى يرقص فى محبته .

★ ★ ★

استمرت لقاءاتى به ، على الغذاء مرات ، وعلى العشاء أخرى . أو فى نزهات على شواطئ البحر ، أو فى زيارات لمعالم البلاد .. ولا أكثر من ذلك .

قال فى مرة فى أحد هذه اللقاءات ، قد يكون اللقاء العشرين . قال معاتبًا وقد توطدت أواصر المعرفة بيننا :

لِمَ هذا الاستقبال فى صالة الفندق ؟.. لقد توقعت استقبالك لى فى غرفتك من ثانى لقاء لنا .. خاصة وأنت تعرضين على تلك القصاصات المهلهلة من بقايا الصحف .

فهمت أنه يرمى إلى شىء ما فى نفسه .. ابتسمت متغاضبة ومتدللة فى نفس الآن وقلت :

أنت أردت الاطلاع على أخبار الصحف حينذاك .. ثم لماذا أدعوك إلى غرفتى ؟ ما الرابطة بينى وبينك ؟.. إنك مجرد صديق .. معرفة قديمة .. ولا شىء غير ذلك .. إن والدتى عربية ، علمتنى ما يجب على الفتاة اتباعه .. ، وما لا يجب .. كما علمنى والدى التعنت والتزمت فى كل ما يمس الكرامة .

فقال : ولكنك ابنة سيرال .

رددت شبه غاضبة :

إننى ابنة أمى ، وأبى العربيين ..

لم يخطر على باله قط ، أننى أريد الايقاع به ، ليتمرغ تحت تراب قدمى .. وقد وقع فعلًا .

وسألنى مرة أخرى فى لقاء آخر :

ما موقعى على خريطة قلبك ؟

أجبته متعمدة : بقعة بيضاء .

وعندما بان على وجهه الغضب .. أردفت باستثناء :

إن أردت الحقيقة كاملة .. أنا أشعر بالراحة ، أثناء الجلوس إليك .

فرد متضايقًا بحق :

لا يعنى هذا شيئًا .. إنك فى حاجة إلى شخص يحدثك ، ويستمع إليك .. خاصة وأنت غريبة ها هنا . ليس لك أهل أو أصدقاء ..

فقلت : ربما .. ولكن لا تنسى أننى كونت صداقات ، وزميلات فى عملى الجديد ، منذ اليوم الأول الذى ألحقتنى به .

فرد مصححًا .. لم ألحقك بأى عمل .. صاحب العمل هو الذى فعل .

ضحكت ، وقلت .. أوه نسيت المسميات عندكم .. أعنى يوم .. يوم قدمت لى وساطتك عند صديقك .. رئيسى فى العمل .

سكت برهة .. وعاد إلى القول وكأنه تذكر شيئًا :

أيمكن أن أطرح عليك سؤالًا خاصًا ، دون أن يضايقك ، أو يغضبك ؟

ـ سل ..

فقال : ما مدى الصلة التى بينك وبين صاحب العمل ؟..

صديقك ؟.. هل أنت غيور ؟..

فرد بعصبية أكثر : كلا مجرد سؤال ..

فقلت بجدية تامة :

ليس بينى وبينه أى نوع من الصلات ، غير صلة العمل طبعًا .. ولم أخرج مع أى من زملائى .. أو رؤسائى .. أو أى من معارفى .. ليس لى صلة من أى نوع خارج نطاق العمل .. لم أخرج إلا معك فقط .. لقد أصبحت لك دالة علىّ .. لست أدرى من أين جاءت .

فقال بإغراء :

لماذا لا تتركين العمل هناك .. وتأتين للعمل عندى ؟ .. إن فروع الشركة من الكثرة . بحيث تنتقين الفرع الذى ترغبين فيه .. والنوع من العمل الذى ترينه يناسبك .. والأجر الذى تطلبين .

وكان ردى :

ولماذا أترك عملى ، طالما أنا فى وضع مريح منه .. ولماذا لا نفصل الصداقة عن المصلحة .. لو كان هذا الاقتراح فى بداية تعارفنا ، وقبل أن أوفق إلى عمل .. لربما وافقتك تحت ضغط الحاجة الملحة .. أما الآن فالأفضل أن نبقى أصدقاء فقط .. لا رئيس ولا مرؤوس ..

ـ لن أترأس عليك .. سوف أدع لك مهمة الرئاسة ..

وضحك ، وضحكت معه .

★ ★ ★

قال عادل لى فيما بعد . لقد اخضعتنى تمامًا لسحر أنوثتك الطاغى ..

وكنت أعرف هذا قبل أن يقوله لى . وكنت أزيد من تأثير هذا السحر اشتعالًا بالقرب منه ، والامتناع عليه ، بتلبية دعواته ، والبرود فى الرد على عاطفته المتأججة .. شحذت كل أسلحتى وخبراتى فى هذا المجال ، حاربته بخبرة المرأة المجربة ، وليس الفتاة الغرة ، وكان عدم وقوعى فى غرامه مساعدًا لى على رسم خطواتى بمعرفة ودراية ، حتى أصبح أمامى كالكتاب المفتوح . أقرأ معانيه ، وأسطر فيه ما أشاء عندما أشاء ، وأمحو منه مالا يعجبنى عندما أريد .

ولم يستطع الشاب الألمعى الصمود بين يدى ، لأكثر من أربعة أشهر .. رغم ما عرف من جبروته .. ثم .. ثم .. عرض علىّ الزواج .

أظهرت التردد .. ووالیت التفكير .. ثم طلبت مهلة للرد .. والشاب المتعجرف ، يتحرق على جمر الغضا .. فقد كل اتزانه ، وضاعت حصافته .. لقد أصبحت أرى ذلك بوضوح ، وهو لم يخف ما حل به علىّ ، قال :

إنه أصبح يهب لأول رنة هاتف ، ويقف لشبه خيال لظل مقبل عليه ، متأملًا فى كل مرة ، أن أكون أنا قد جئت لأقول له ، نعم .

وأخيرًا بعد ما جف ريقه .. قلت نعم .. وتزوجنا .

ما حدث كان جلّ مطلبى الأول ، وقد حققته بانتصار ساحقّ . قلت لنفسى : بعد أيام من الزفاف .. يجب أن أحافظ على هذا الانتصار .

أما بالنسبة لـ(عادل) ، فبعد كل هذه المعاناة ، كان فى غمرة من السعادة لا توصف .. لم يستطع توالى الأيام وأنا معه وبين يديه أن تنزلنى من فؤاده قيد أنملة .. إنه ترك من أجلى ما كان يحيط به من إغراءات . كان يقول لى : قبضتك قوية على فؤادى .. بيد أنى لم أحبه قط ، كما لم أكرهه أيضًا . إنما فقط أكره منه نزعته الأنانية وإيثاره الزائد لنفسه اللذين يظهران عليه بعض الأحايين ، خصوصًا عند الحديث عن (رقم واحد) . بيد أنه وأيم الحق كانت كل أمنياتى محققة ، وكل طلباتى أوامر سريعة التنفيذ . لم يصطدم بى أبدًا .. لم أتشاجر معه قط . كانت علاقتنا ببعضنا متناغمة أشبه بلحن سيمفونية رائعة التأليف .. كنت سلسة القياد ، وهذا طبع فىّ ، وكان محبًا شغوفًا .. كنت أتمنع عليه ، كى أزيده شغفًا ، إلى أن يجن جنونه ، ثم أذيقه من جنتى ثمرًا حلالًا .. هذا التعبير له .. قاله لى مرة .

ولكن فى يوم ما ، ظهر فجأة حرف نشاز فى هذا اللحن الجميل ، على غير توقع منى ، فاصطدمت به واصطدم بى فى قسوة شديدة ، كعادته فى النود عن كل ما يتهدد سلامته . ظهرت أنانيته واضحة للعيان . وكان ذلك عندما طلبت منه أن يتصل بمديرة دار الأيتام ، كى تسهل لى زيارة (رقم واحد) .

كان ذلك بعد ستة أشهر من الزواج منه ، لم آت خلالها على ذكر لـ(رقم واحد) على لسانى .. ولكنى الآن حامل فى الشهر الثانى .. لقد أصبحت لى دالة عليه أكثر .. بيد أن هذه الدالة لم تشفع لى فى هذا المضمار بالذات . حيث استشاط (عادل) غضبًا . ورفض مجرد مناقشة الموضوع .

ولأول مرة فى حياتى الزوجية ، أجابه بحدته وأجابهه بحدة مثلها . لم أتنازل عن طلبى . غضبت وهجرته .. رفضت الحديث معه ليوم كامل .. وهذا أكثر ما يزيده جنونًا .. لم يفهم سببًا لطلبى الغريب ، كما قال لى .. زيارة طفل معتوه ؟.

وفى المساء عندما حاول استرضائى قال معاتبًا :

ألم تذكرى قبل زواجنا .. أنك لم تعودى تحبينه ؟

فقلت له ؟. ماذا .. يضيرك من زيارتى له ؟. هل تخسر شيئًا ؟!

فقال مصرًا :

ما الفائدة العائدة عليك من وراء هذا المطلب ؟ ألم تقولى إنك لم تعودى تحبينه ؟. ربما لو عاودت رؤيته تستعيدين حنوك عليه .. أرأيت وجه الخسارة ؟

فقلت مراوغة : بماذا تفكر مديرة الدار عنا ..

فرد معاندًا .

لتفكر ، ما تفكر فيه .. لقد زدت مخصصاتها ، وهذا أكثر ما يهمها .. ثم إن هذا أسلوبى معها منذ ثمانى سنوات .. وأنا أريد أن أجنبك استعادة حنانك عليه .

فقلت مكابرة :

كان لك عذرك .. لقد كنت مشغولًا دومًا .. أما الآن إننى موجودة وأستطيع النيابة عنك ، ويجب علينا زيارته .. ولو من باب الواجب .. وأخيرًا لنفرض أنى استعدت حنانى عليه ، ماذا يضيرك من هذا التصرف ؟

لم يفهم (عادل) وجهة نظرى .. ما هذا الواجب الذى أهل عليه فجأة .. لم يفكر قط بأن هناك واجبًا عليه تجاه ذلك المسخ ، سوى واجب تغذيته ، على حد تعبيره .

فقال .. لعلك نسيت أنه رديف لى .. أتريدين أن يكون سببًا للشقاق بيننا عندما يحين وقت الحاجة إليه ؟

أصررت على مكابرتى فقلت :

أنا قلت لو .. ولكن هذا لن يحدث .. لن أحس بأى حنو عليه .. لأن لدى ما يستهلك كل ما عندى من طاقة للحنان .

وأشرت إلى بطنى .. وأنا أضحك مخففة من حدة توتر الموقف العاصف .. فضحك هو الآخر ، فرحًا بهدوئى .. ومسح بيده على بطنى بحنو الأب .

لله فى خلقه شئون .. فكرت لماذا لا يحنو على (رقم واحد) بنفس الطريقة ، كما فعل الآن بالنسبة للجنين الذى لم ير النور بعد .. وسألته .

فرد مفلسفًا الأمر :

إن غريزة الأبوة ، لم تتواجد فى مسارها الصحيح عند مجئ (رقم واحد) ، كان جل تفكيرى واستعدادى النفسى ، والعضوى رديف .. رديف فحسب .

وسكت لحظة ثم سمعته يفكر بصوت مسموع كمن يخاطب نفسه ويخاطبنى فى نفس الآن ، قال : أنا الآن واثق من محبتك لتطفل .. كيف حدث هذا وهو ليس أبنًا لها ؟. لتكن فلسفة الأمر كالآتى .. بما أنه ليس لديك عند الحمل به ، أية مشاعر مضادة لدور الأمومة .. وكان دورك أصلا القيام بدور الأم .. وقد قمت به تمامًا .. لذلك حنوت عليه حنو الأم .. إن جل ما أخشاه أن تتعمق جذور هذه المحبة أكثر فأكثر بالألفة .. مما يعرض الاستفادة منه عند اللزوم للخطر .

ولكن كل تحفظاته ذهبت أدراج الرياح ، إزاء إصرارى على زيارة الطفل .. وزرته مرارًا وتكرارًا .. حتى أصبحت زياراتى له

فيما بعد شيئًا عاديًا بالنسبة لـ (عادل) ، وبالنسبة لمديرة الدار .. وإن لم تصبح عادية بالنسبة للطفل بعد .

كنت أعود بعد كل يوم زيارة أقوم بها للطفل ، لا أنبس ببنت شفة عن أخباره لزوجى .. كنت ألزم الصمت .. الصمت التام ، وكان (عادل) يخشى أن ينطرق بأى سؤال حول الموضوع ، كى لا أرى فرصة أخرى ، لفرض طلبات جديدة لمصلحة الطفل . وكان يعرف مواعيد زياراتى للطفل . وكنت أنا الأخرى أعرف لماذا هو يتجنب الحديث معى عنه .

وفى يوم ما . وكنت فى أشهر الحمل الأخيرة . وكان (عادل) يخاف على صحتى من هبة النسيم .. كسرت حاجز الصمت أخيرًا . فقلت بطريقة مباشرة :

لماذا لا تعطى الطفل اسمًا آخر بدلًا من (رقم واحد) ، كى لا يشعر بوضعه الشاذ بين أقرانه ؟

فاحتد (عادل) .. لقد حدث ما كان يخيفه .. بدأت .. هذه البداية .. قالها لنفسه بصوت مسموع .. ثم قال لى :

أتريدين أن نطلق عليه اسمًا ؟ .. هل ترين إعطاءه هوية أيضًا ؟.. إنه ليس إلا قطعة غيار .. ثم أردف بتوتر . ما اسم العربة التى تقودينها ؟

فرددت عليه بعفوية ، ودون أن أفطن لما يهدف إليه من السؤال .. كارتش .

- اختارى له اسمًا على غرارها .

فقلت دون مداراة لغضبى منه .. إنه إنسان .

- مصنع ..

- لا يمنع من كونه إنسانًا ..

- معتوه ..

- اعتقد الآن ، أنك تعلم أن التجارب المبدئية التى أجريت عليه ، وهو نطفة لم تؤثر عليه ، لقد فشلت فشلًا ذريعًا ..

- يبدو أن كل ما سوف يجيء من وراء هذا الرقم سيمنى بالفشل الذريع ..

قال ذلك بصوت شديد . وأردف .. هل أعطاؤه الاسم ، يعطيك شيئًا من الراحة ؟.. اختارى له الاسم الذى يرضيك . ولا تكلمينى بشأنه مرة أخرى ..

- (على) .. لنسمه (على) ..

- سميه ما شئت . ولكن ليكن فى علمك أنه لن يكون له اسم بشكل رسمى ، غير (رقم واحد) .. وهذا آخر حديث اسمح لك بمبادلته معى بشأن ذلك المسخ ..

لم يتوصل طموحى معه إلى حد أن أطلب تغيير اسم الطفل رسميًا .. إننى أرتقى السلم درجة .. درجة .. فقلت موافقة :

حسنًا .. ليكن اسمه (على) .

واستطردت براحة كبيرة .. وأردفت .. لقد سميته .

فحدجنى بنظرة مكفهرة .. وقال .. إذن هذا هو سر اهتمامك .. لم أفهم عبارته الأخيرة . ولكنى لم أبال .

★ ★ ★

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد . فبعد فترة ليست بالطويلة من ذلك الحوار ، أى بعد أسبوعين بالتمام وبدون إذن من زوجى أحضرت الطفل إلى المنزل .

ألم يطلب منى عدم محادثته بشأن الطفل مرة أخرى .. إذن لأتصرف بمفردى .

انتهزت يومًا لم يكن (عادل) فى مكتبه ، ولا فى المنزل ،

حيث كان متغيبًا خارج المدينة لبعض أعماله ، ولن يعود قبل المساء . انتهزت هذه الفرصة ، فقمت بإجراءات إحضار الطفل إلى المنزل .

لقد قررت بمفردى إخراج (على) من دار الأيتام ، وأن أدعه يعيش معنا .. لقد قمت بذلك الإجراء أثناء غياب (عادل) نهارًا كاملًا ، كى أمنع أى فرصة لأى اتصال هاتفى قد تجريه مديرة دار الأيتام بـ(عادل) ، لأى استفسار قد يخطر على بالها .

كانت ثقة مديرة دار الأيتام بى قد تعززت بعد زواجى من (عادل) ، وبعد اتصاله الهاتفى بها للسماح لى بزيارة الطفل فى أى وقت أشاء .. فلم تمانع ، وخاصة وقد قمت بالتمهيد لهذا الأمر بأن ألمحت لها أثناء زيارتى للطفل باحتمال إخراجه من الدار قريبًا . لذا فلم يكن الأمر مفاجئًا لها ، ولكنها مع ذلك لم تسلم بسهولة ، فكإجراء احتياطى ، أخذت تماطل وتسوف فى الإجراءات ، على أمل أن تكون لديها فرصة للاتصال بـ(عادل) لكى تستطلع رأيه حول الموضوع . كنت أسرع بإجراءات التسلم ، وهى آخذة فى المماطلة . ولكن لم أخرج فى المساء إلا والطفل فى يدى ، وذلك بعد أن أجهدنى الموضوع ، فقمت تعهدًا خطيًا ، بأننى بصفتى زوجة لأبيه ، أتسلم الطفل على مسئوليتى التامة .

★ ★ ★

أما تكريات (رقم واحد) عن ذلك اليوم المحفور حفرًا فى مخيلته ، فقد قال :

دخلت القصر الكبير بصحبة زوجة توأمى ، وأمى بالحمل والولادة .. فأدرت بصرى حائرًا فى أرجاء المكان ، لقد بدا فى نظرى لا حد لاتساعه . لكم هو منزل كبير رحب .. يشبه قصر السلطان الذى حكت عنه المعلمة .. أترى أبى سلطان .. إن المعلمة

الجديدة ، أخبرتنى أن أبى ليس هو التجربة .. وأن اسمه (عادل) ، هل هذا العادل لطيف مثل ماما ؟.. هى قالت ، قل ماما ، أم هو مثل المديرة والمعلمات ؟.. تلفّت فى أنحاء المكان .. أبحث عن أبى .. إنها تكذب علىّ .. ليس هنا أحد .. هل (عادل) هو ذلك الرجل ، الذى فتح باب القصر للسيارة ؟.. وددت أن أقترب من قطع الأثاث ، والستائر لألمسها . ولكنى لم أزايل مكانى ، بقيت صامتًا ، ساكنًا ، كأنى جزء من المكان .. كنت طوال الطريق مبهورًا من كل شىء مرّ ببصرى .. حتى مقود العربة ، والمقعد الذى أجلس عليه ، وقدم المعلمة الجديدة ، وهى تنتقل ما بين دواسة الوقود والفرامل ، والشوارع الفسيحة ، والمنعطفات المتوالية . وكثرة الناس ، ووفرة المركبات ، وواجهات المعارض . غريب ، كل ما يقع عليه بصرى غريب .. لم أر ، ولم أسمع عن كل هذا من قبل . لقد ظننت أن العالم كله هو الدار التى أسكنها ، وأن الناس هم حفنة البشر التى تحتويها تلك الدار .. لقد كنت محرومًا من الخروج منها ، حتى من النزهات الجماعية التى تعملها المدرسة بين الحين والحين لنزلائها من الأطفال .. لأنى رقم .. مجرد رقم .

وقفت مبهوتًا .. قالت لى :

تعال اجلس ها هنا قريبًا منى .

فلم أعرها اهتمامًا . كنت أسبح فى لجج من الأفكار المشوشة ، كانت نفسى تحدثنى .. لماذا أنا هنا .. إننى لن أعرف كيف أسير بين كل هذا الحشد من الأثاث .. ها هو صبى آخر ينظر إلىّ .. إنه مثلى لا يتحرك .. لعله خائف . وتحركت متجهًا إليه ، كى أريه أننى لست خائفًا مثله . فتحرك هو الآخر مثل حركتى ، فطنت إلى أن هذا الصبى هو صورتى فى المرآة .. لم يسبق لى أن رأيت حجمى كاملًا ، سبق لى رؤية وجهى فى بعض قطع زجاج المرايا .. كم هى كبيرة هذه المرآة ،

إنها تسد الحائط بأكمله ، لو سقطت ستحطم الأثاث .. ليتها تسقط . الآن الآن .

وبدلًا من أن أذهب وأجلس حيث أشارت المعلمة الجديدة ، ذهبت إلى حيث المرآة ، وقفت بجانبها دون أن أنظر إليها .. إن بى رغبة شديدة فى سقوطها .

صاحت بى مرة أخرى .. تعال .. يا (على) ..

ولما لم تر منى استجابة ، ظنت أنى لم أتعود على الاسم الجديد بعد ، فقالت مكررة :

تعال .. يا .. واحد ..

غضبت دون أن أعرف السبب فركضت ناحية الباب ، مجتازًا باب البهو بسرعة البرق .

نهضت تجرى خلفى ، وهى ممسكة بأسفل بطنها المنتفخ . لست أدرى لماذا هو منتفخ هكذا .. أخذت تصرخ بالمزارع أن يغلق الباب الخارجى ، وكانت تصرخ أيضًا (على) .. (على) ..

أمسك بى المزارع ، يجرنى إلى الداخل ، عندئذ رأيت رجلًا ينزل من الطابق الأعلى على الضجة ، وكان يقول .. مالك وهذا المسخ ؟

وأتمت (سلمى) ما حدث فقالت :

عرف (عادل) أننى أحضرت الطفل ، وأنا ما أزال فى الطريق إلى المنزل ، وذلك من الاتصال الهاتفى الذى تلقاه ، بمجرد دخوله المنزل من مديرة الأيتام ، فأسقط فى يده ، لأنه لم يعد قادرًا على تلافى موضوع إخراج الطفل من دار الأيتام ، وقد أصبح خارجها فعلًا . فتظاهر أمام مديرة الدار بالموافقة على ما قمت به من إجراء .. وأن ما قمت به تم بعلمه وبرضاه . ولكنه أمسك بخط للرجعة ، بأن وعد المديرة بأنه سوف يعيد (رقم واحد) إلى دار

الأيتام ، بمجرد ما تضع (سلمى) حملها ، وتفرغ كل ما لديها من عاطفة وحنان على المولود الجديد .. هكذا قال لها .

أردف (عادل) وهو يضع قدمه على آخر درجة فى طريقه إلى البهو الأرضى .. مالك وهذا المسخ .. لِمَ لا تعيدينه حيث هو .. إننى أعجب لكل هذا الاهتمام .

لكنه لم يصر على رأيه ، ربما لأنه خشى مسبقًا أن تكون الغلبة لى .. إضافة إلى أن إعادته فورًا إلى دار الأيتام بعد ادعائه أمام مديرتها بأن خروج الطفل تم برضاه مستهجن . بيد أنه قرر بما لا يقبل الشك بينه وبين نفسه استعمال الدهاء فى إبعاده نهائيًا عنى .. بعد ما تأكد لديه شدة تعلقى بالطفل .

على أية حال لم أعر انتباهًا لملاحظات (عادل) . وأمسكت برسغ الطفل بقوة ، وقد أحضره البستانى بين يدى .. وأخذت أربت بيدى الأخرى على رأسه ، كما يفعل المروض ، أثناء ترويض حصان جامح . ولكنه أزاح يدى ، وهو يتلوى للإفلات من قبضتى . ورغم الثقل الذى أشعر به فى بطنى إلا أننى استطعت سحبه إلى الغرفة المعده له .

ولكن (عادل) لم يسكت ، خاصة وهو يرى المقاومة التى يبديها الطفل ، صاح به :

ما هذا .. أتريد أن تضرب بالعصا كى تعرف كيف تكون مطيعًا !!

فزاد تمرد الطفل بمجرد سماع التهديد . وصاح به هو الآخر .. إنك مثل التجربة ، مثل المديرة .. مثل المعلمات !!

زادت مقاومته بين يدى . نظرت إلى زوجى بنظرة عتاب ، وغمزت له بأن يسكت . شد (عادل) حزام الروب على خصره ، وأدار وجهه صاعدًا من حيث أتى ، وهو مقطب .

حالما غادر (عادل) المكان ، هدأت حركة الطفل ، واستكان ، ثم أسلس قياده لى حيث صعدت به إلى غرفته . حاولت خلع ثيابه وإلباسه بيجامته الجديدة ، ولكنه رفض .. فتركته متمنية له نومًا هنيئًا .. كنت أود تقبيله ولكنى خشيت مقاومته .

تركت باب غرفته (مواربًا) كى لا يشعر بأنه مسجون . ولكنى أقفلت باب المدخل المؤدى إلى الممر ، دون أن أحدث ضجة ، لقد خشيت أن يعاود الهرب مرة أخرى .

بادرنى (عادل) بالقول ، حين دخولى غرفة النوم .

ها قد نفذت رغبتك . ودون إذن منى ، فجلبت هذا المسخ إلى المنزل .. ترى ما الجدوى التى تعود عليك ، أو عليه .. أو على أىٍّ منا من المجئ به إلى هنا ؟

وحتى لا أجيب على تحليلاته . تصنعت الغضب وأنا أقول :

اسمع يا(عادل) .. إنه يسوعنى ، ويسوعنى جدًا ، نعتك له بالمسخ . إنه إنسان سوى .

فقال مكابرًا ، رغم معرفته بغير ذلك .. إنه مختل العقل ..

رددت بعصبية :

كلا ، لقد اختبرت ذكاءه .. وهو عندما يكون مطيعًا ويقدم أى اختبار مع زملائه التلاميذ يتفوق عليهم .

فرد : ألا ترين أن عدم طاعته ، ومشاكسته لمعلماته ناتج عن اختلال فى عقله ؟

فقلت .. كلا .. إنما نتيجة للتربية القاسية التى تلقاها ، ونتيجة لوضعه الخاص جدًا .

ـ أليست التربية هى نفس ما يتلقاه مجموع أطفال الدار ؟ لماذا لا يتصرفون بمثل تصرفه ؟

ـ من أدرانا عن تصرفات مجموع الأطفال ؟. إننا لم ندرس

كل حالة على حدة ، ومع ذلك فمن المؤكد ، أن كل فرد منهم له ردود فعل تتناسب مع مسئولية التربية التى يتلقاها .. فهل تعتقد أن مؤسسة كهذه تنشئ جيلًا سويًا ؟..

فظهرت عصبيته جلية للعيان إذ قال :

اسمعى يا (سلمى) ، نحن لا يهمنا من الأمر شىء سوى تنشئة رقم واحد سويًا .. أم غير سوىّ .. إنما المهم هو جسده .. جسده ما يجب أن يبقى سويًا .

ـ يا لك من شخص أنانى !

ليس فى الأمر أنانية .. إنه طفل صناعى أنتج لهذا الغرض .

ـ بل هو كائن إنسانى ، مثلى ومثلك .

تعالى صراخنا ..

ـ انتبهى للمغالطة .. الأمر مختلف جدًا .. لك أب وأم ارتبطا بعلاقة . أما من هم على مثل شاكلته ، فلهم أب ، أو أم فقط ؟ ، وهذه الرابطة ليست بالأمومة ، أو الأبوة ، كما هى بالمعنى الصحيح ، ليست ثمة علاقة رحم تربطه بأى من أبويه .. لا تنسَىْ أنه شخص أحادى الخلية ، جاء من خلية بالغة ، عولجت معمليًا كى تنمو بالانقسام .

ـ لا تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية .. لم لا تحبه كابن لك ؟

ـ بل لا يجب أن ينظر إليه إلا من هذه الزاوية . ثم إنه ليس بالإبن . كى أحبه .. يجب أن تفهمى ذلك .. لم تتكون عندى غريزة الأبوة ، وهو يكشط من باطن فمى . إن شعور الأبوة شعور مختلف .. هذه غريزة يجب أن تفهميها .. عندما كشطت الخلية من باطن فمى ، كانت مشاعرى تجاهها أنى أقوم بعمل صناعى لحمايتى ، شعورى تجاه هذه الخلية مثله مثل شعورى تجاه هذا

المكيف للهواء .. وأشار بأصبعه إلى فتحة التكييف فى سقف الغرفة .. وواصل :

احرص على جودته كى يمدنى بطقس مريح أكثر .. هذه غريزة صاحبت توالده منى .. انظرى إلى إنسان الأنابيب ، إن الذين أنجبوهم يملكون غريزة الأمومة تجاههم .. لأنهم حينذاك عندما أخذت منهم الجينات ، كانت مشاعر كل من الأب والأم تحوى غريزة بقاء النوع ، وليس غريزة صيانة النوع .. ثم أعيدى النظر أيضًا إلى إنسان الأنابيب ، لقد كبروا وتزوجوا ، هل شاهدت أو سمعت ، بأن أحدًا منهم أنجب بالأسلوب الخاص بالإنسان الطبيعى بدون الاستعانة بالأنبوبة التى جاء منها .. أبدًا ، إن إنسان الأنبوبة يتكاثر بنفس الطريقة أو الأسلوب الذى جاء به .

حقًا لم أنتبه إلى هذه النقطة من قبل ، إنهم حقًا ليس فى مقدورهم الإنجاب إلا عن طريق الأنبوبة ، دونما سبب واضح .. لقد عجز الأطباء عن تبيان السبب ، رغم كل الفحوصات التى تدل على سلامة أبدانهم من أى شائبة تشوبهم ، حيث إنهم سليمون من الناحية البايولوجية ، والفسيولوجية ، ولكن شيئًا ما تغير فى طبيعتهم الفيزيائية .

اعتبر (عادل) سكوتى عن الرد عليه قبولًا لآرائه . فقال بحماس أكثر محاولًا إقناعى :

بمثل ما جاؤا .. كيف تريدين منى أن أشعر بأبوتى (لرقم واحد) ، وهو لم يأت على غرار بنوتى لوالدى ؟.. بل عندما جاء كانت كل مشاعرى متجهة ناحية حماية نفسى لصناعة قطع غيار لى .. إن مشاعر الأبوة ، أو الأمومه ، تتكون لدى الإنسان منذ اللحظات الأولى ، قبل تكوّن الجنين بمراحل . بل قبل الزواج ، أى الأخذ فى الاعتبار أن الإنسان عندما يوفق إلى الزواج سيكون له

أبناء .. هنا تخلق المشاعر تلبية للغريزة الكامنة فينا إلى حين الإنجاب .. هذا هو الأمر الطبيعى ، وكل ما خرج عن الطبيعة لا ينتهى إليها .. مشاعر الأبوة طبيعية وبنوة (رقم واحد) غير طبيعية ، فكيف بالله عليك ، تريدين مزاوجة بين ما هو طبيعى وبين ما هو غير طبيعى ؟

وحلق خيالى فى مجال آخر ، فسألته .. ترى لو تزوج (على) هل ..

وقبل أن أتم ، رد مستغربًا بسؤال مضاد .. من (على) ؟.

التفت له .. (رقم واحد) .

رد بسخرية .

آه .. نسيت أنك أطلقت عليه اسم (على) .. لن ينجب مثلنا ، لابد أن يبحث عن نفس الطريقة التى جاء بها إلى هذا العالم .

ـ هل هو عقيم ؟..

هدأت ثائرته وتحول إلى المناقشة الهادئة .. فقال :

إذا أخذنا الأمر بالقياس إلى إنسان الأنبوبة ، وإلى الإنسان المجمد (الإنسان الباهت) ، فكل منهم أعاد نفسه للمحافظة على استمرارية بقائه بنفس الوسيلة التى أوجدته .. يكون (رقم واحد) كذلك .. وحتى لو لم يكن عقيمًا .. حتى لو لم تكن أعراض العقم ظاهرة عليه ، أى حتى لو كان سليمًا من الناحية البايولوجية ، والسيكولوجية . أى بمعنى أوضح حتى لو كانت له القدرة على إنتاج الحيوانات المخصبة ، فإنه لن تتم عملية الإخصاب .. لسبب ما قد يكون مجهولًا .. لابد أن يكون هناك شىء ما يمنع ذلك ، قياسًا على إنسان الأنابيب ، إنه ليس عقيمًا ، ولكنه لا يتكاثر إلا عن طريق الأنبوبة ، أو قد يكون عقيمًا مثل الإنسان الباهت .. ثم إن سؤالك فى غير موضعه :. ضحك مستطردًا من .. من يتزج رجلًا

كهذا .. رجلًا بدون اسم أو هوية ؟ إنك تحلمين دون ريب .. ثم من أدراك أننى سأبقى معافى مدة طويلة ؟.

فقلت فزعة .. ليحمك الله .. ليحمك الله ..

سرّ (عادل) لهلعى على صحته .. ولم يفطن لسر فزعى .. بل اعتبر ذلك الخوف أول تعبير واضح عن مقدار محبتى له .. فمد يده مداعبًا ، ولكن .. وأنا فى حمى انفعالى ، لم تكن لدى رغبة فى الحب .. فأبعدت يده عنى .. وقلت متسائلة :

وأنا .. هل تفسر لى لماذ أحبه ؟ لو طبقنا نظريتك ، فإنه ليس من صلبى .

أفرخت فرحته .. كان هذا أول اعتراف منى بمحبتى للطفل . خرج منى هذا الاعتراف بدون أن انتبه .. حدجنى بنظرة طويلة ، ودون أن يلفت نظرى إلى هفوتى . أجاب :

عندما زرعت الخليّة فى أحشائك ، كانت مهمتك القيام بدور الأم ، وليس لديك مشاعر مضادة تلغى ذلك ، لم يقرّ فى ذهنك إلا أنك أم لهذا الجنين . وطيلة مدة حملك له تكونت لديك أحاسيس الأمومة التى تستشعرينها الآن .. ولذا فمعهد الأبحاث على حد ما نمى إلى علمى ، وبعد هروبك من المستشفى والجنين فى بطنك ، اتبع نظامًا آخر فى تعامله مع المتبرعات للحمل ، حيث أخذ الاستعانة بأطباء نفسيين مهمتهم الإيحاء إليهن ، وتذكيرهن باستمرار طيلة فترة حملهن ، بأن المهمة المناطة بهن لا تمت إلى الأمومة بصلة ، وأنها عملية شبه آلية ، حيث لا تعدو تشغيل أحد أعضاء الجسم ، كما تشغل حائكة الثياب يديها وعينيها أثناء الحياكة .. وأن الآلة تتدخل فى صنع الجنين كما تتدخل آلة الحياكة فى صنع الثياب ، وكلتا العمليتين يؤخذ عليهما أجر . والذى حدث فعلًا أن أية واحدة منهن لم تهرب ، أو تتشبث بالطفل المحمول .

فتنهدت قائلة :

على كل حال ، لا يمنع كل ذلك من كونه إنسانًا .. ثم إنى لست أمًا لكل الناس .. ومع ذلك لو تعرض أى امرئ لما تعرض له (على) لما توانيت عن .. عن .. محبته ..

وابتلعت كلمة (مساعدته) التى أوشكت أن أنطق بها ..

فاغتاظ (عادل) ، وجانب المنطق من شدة غيظه ، فقال مكابرًا مرة أخرى .. إنه على أية حال مختل العقل .

ـ لست أفهم لماذا تصر على اختلال عقله ؟

ـ لنترك الأمر الآن .. لقد أحضرته إلى المنزل ، بناء على رغبتك .. أرجو ألا يكون سببًا لأى إشكال بيننا .. لننته منه ، لا تدعى أمره يفسد علينا حياتنا .

ومال علىّ ليقبلنى ، فى دعوة للمصالحة ، ولكنى دفعته بلطف مرة أخرى ، وانقلبت إلى الجهة الأخرى كى أطفئ النور القريب من الفراش .

إنى أبحث فى ذهنى عن وسيلة ما ، تجعل (عادل) يعدل عن فكرته بخصوص الطفل .. ترى هل أنجح .. قلت الكلمة الأخيرة لنفسى .. ، وأضطجعت ملقية بظهرى جهة (عادل) ، الذى زحف كى يطوقنى .

لكم أحب هذا الطفل المسكين ، لقد أحببته كل هذا الحب برغم أنه ليس من صلبى . إنى لا أحس إحساسًا مغايرًا بالنسبة للطفل الذى يتحرك فى أحشائى .

★ ★ ★

كل الذى عملته يعد انتصارًا لى ، وبرهانًا أكيدًا على مدى تدله (عادل) فى محبتى ، بحيث لم يعارض فيما أريد وأرغب معارضة فعالة .. جلبت (رقم واحد) إلى المنزل وربيته كأم

رؤوم ، بما يخدم مصلحته طيلة سبعة أعوام .. ماعدا ، شيئًا واحدًا ، لم أستطع تغييره ، برغم الجهد الذى بذلته ولا أزال أبذله .. ألا وهو صرف نية (عادل) عن استعمال توأمه كقطعة غيار لنفسه ، حتى بعد أن أصبح هذا التوأم شابًا يافعًا فى الخامسة عشرة من عمره ، يحمل كل مخائل الذكاء .. بل لم أستطع أن أجعل (عادل) يحسن من معاملته للصبى اليافع . فنظرته استمرت لم تتغير البتة تجاه (رقم واحد) ، كرديف له ، حتى أنه قط لم يدعه باسمه الجديد ، الذى اخترته له ، كما أنه لم يكن يجرؤ على مناداته (برقم واحد) على مسمع منى تجنبًا لإثارة المشاكل بيننا . كان يناديه تعال ، اذهب .. اعمل ، دع كذا .. كما كان يتجنب معاملته بقسوة ، طالما كان الصبى ملتزمًا للحدود المرسومة دون إعلان أو مصارحة . بيد أنه لم يعترف بأى حق من حقوقه كإنسان ، بل لم يعترف بإنسانيته قط ، برغم أن (رقم واحد) أثبت منذ طفولته وحتى الآن ، أثبت بما لا يقبل الشك بأنه إنسان سوى ، بتصرفه المتزن ، واستيعابه لكل ما حوله ، مما يدل على أن قيام العلماء ، بمحاولة تعطيل قدراته الفكرية ، وهو نطفة باء بالفشل الذريع .. لقد شب الطفل على درجة عالية من الذكاء ، مساوية تمامًا لذكاء (عادل) .. إلا أن الأخير يتفوق عليه بما له من خبرة وعلم .

وكان أشد ما يؤرقنى ، رفض (عادل) بإصرار شديد القيام بأية محاولة منى لتعليم الطفل ، حيث رفض إدخاله المدرسة النظامية ، أو أى مؤسسة تعليمية خاصة ، أو حتى إحضار أحد لتعليمه فى المنزل . سد كافة الأبواب للقيام بأى جهد لتعليم الطفل ، محتجًا بالخوف من انتشار خبر أن (رقم واحد) إنسان عاقل سوى ، فيثبت فشل التجربة علميًا ، وبذا تسحب منه قيمة الأربعين ألف دولار إضافة إلى أرباحها التى تنتج عنها كل هذه السنين والتى تمثل

كل ثروته الآن . وربما أضر بمصالحه الأخرى بالنسبة إلى استعماله كقطعة غيار ..

وهذا نمط الإجابة التى لا تتغير والتى يسمعنى إياها فى كل مرة ، هى التى كانت يحتج بها لإهمال تعليم الطفل .

ـ لو عرف المركز العلمى فى سيرال بفشل التجربة علميًا .. ماذا ترين سيحدث .. سنتعرض لهزة مالية ، ومشاكل قضائية .. ثم بأى اسم ندخله إحدى المدارس التعليمية ؟ إنه ليس إلا (رقم واحد) .. ليس له هوية رسمية ، غير الإنسان الاحتياطى .

كثيرًا ما راودتنى فكرة الاتصال بمركز الأبحاث العلمية فى سيرال لأطلعهم على أن نتاج التجربة الأولى فى تمام الصحة العقلية . لعلى بهذا ألغى الحق فى استعماله كقطعة غيار لتوأمه .. إلا أننى خشيت أن يسترد المبلغ من (عادل) قضائيًا ، ويستمر الأمر كما هو بالنسبة للطفل ، حيث لم أعرف قط نص الاتفاق الذى تم بين (عادل) وبين معهد الأبحاث أيضًا .. خشيت أن يطلقنى (عادل) بعد معرفته بأننى التى وشيت به ، فيبقى الصبى تحت رحمته .

قلت له مرة فى محاورة مماثلة :

المركز العلمى لن يعلم عن أخبار الصبى شيئًا .. ولو عرف ، فلن تتأثر ثروتك الهائلة .. ثم أنا أكثر حرصًا منك على هذه الثروة ، إنها ملك لـ (حازم) و (على) فى المستقبل .. باستطاعتك إعطاء الصبى هوية لو أردت ذلك بصورة جادة .. ولكن كل الذى يهمك هو الخوف على نفسك ، والتفكير فى سلامتك .. لماذا ؟ إنك فى تمام صحتك وعافيتك .. لماذا هذه الأنانية البغيضة .

لم يسمع بقية حديثى ، كل الذى علق بذهنه ، المقطع الذى يتعلق بالإرث بين ابنه وتوأمه .. إذ صاح :

كلًا .. الثروة بأكملها لـ (حازم) فقط . سيبقى الطفل احتياطيًا لى . لدى مستند دولى يثبت حقى هذا .. مهما عمل ، لا أحد بإمكانه نقضه ، حتى أنا نفسى .. إننى أحذرك من هذا الحديث مرة أخرى .. ألم تشعرى بالملل على مدى سبعة أعوام ، أو يزيد ، وأنت تضربين على نفس الوتر .. فى محاولة لعملية غسيل مخ .. لن تستطيعى .. ليس فى مقدورك تغيير أفكارى .. إننى أخشى أنك لم تتزوجى منى إلا لهذا السبب فحسب .

بعد هذه الثورة من (عادل) ألجمت لسانى تمامًا ، عن مناقشته ، لقد يئست تمامًا ، لقد بات يشك فى محبتى له ، إضافة إلى أنه بعيد مستعص على أية محاولة للإقناع . فكل ما يقوله ليس إلا عبارات لحجج واهية يتذرع بها .

دون ريب أنه فى ميسوره التنازل عن الاتفاق متى أراد من الذى سيجبره على تنفيذه ؟.. ولكنه وجده الذى يتمسك به .

عندئذ ، لم يبق لى غير أن آمل مخلصة أن تبقى لـ (عادل) صحته وعافيته ، بحيث لا يضطر للاستفادة من المستند الذى يخوله حق استعمال الصبى المسكين كقطعة غيار له متى شاء .

لقد بحثت طيلة سبعة أعوام ، هى عمر زواجى من (عادل) ، وحتى هذه اللحظة ، التى أفرزت هذا الجدل مع (عادل) ، عن ذلك المستند لإتلافه ، ولكنى لم أوفق إلى إيجاده . فى أغلب ظنى أن (عادل) أودعه مع أوراقه الرسمية ومستنداته المهمة لدى أحد البنوك .

أقصى ما استطعت فعله ، أنى لم أقف مكتوفة اليدين تجاه تعليم الطفل ، إذ أدخلته مدرسة خاصة ، خفية من زوجى ، برغم ما فى ذلك من مخاطرة ، لو علم (عادل) بالأمر .

وأكثر من ذلك ، ومن منطلق خوفى عليه مما قد يسمع من أناس آخرين عن وضعه الشاذ ، بصورة مشوهة ، أو مبالغ فيها ، ولو أن الأمر لا تنقصه البشاعة .. حدثته وهو بعد لا يزال صغيرًا ، فى أول أيام إحضاره إلى المنزل .. حدثته عن ملابسات قدومه لهذا العالم . قلت له كل شىء يتعلق به . ولكن بصورة ملطفة مخففة .. قلت له إن أباه فى صحة جيدة . وسيبقى كذلك ، وأن كل شىء سوف يسير سيرًا طبيعيًا بعناية الله ، فلا خوف عليه (رقم واحد) من هذا الأمر .

أصبح (رقم واحد) على مرّ الأيام سلس القياد لى ، يحبنى بجنون ، يعطى ويأخذ من العاطفة بقدر ما كان محرومًا من العطاء والأخذ .

لاحظت أن الطفل لم يقدر خطورة موضوع دخوله إلى هذا العالم بالطريقة التى حدثته بها ، وهو بعد لا يزال طفلًا حينذاك ، ولكنه كلما نما ، يتضح له الأمر شيئًا فشيئًا برؤية جديدة ، وبدأ يأخذ بعين الاعتبار غرابة وضعه . خاصة عندما يرى معاملة أبيه لأخيه الأصغر (حازم) ، الذى يبلغ من العمر السادسة . فكلما رأى التمييز الواضح الذى يحظى به الطفل فى المعاملة ، وفى الحب والعطاء ، كلما رأى ذلك ، قدّر فداحة الخطب الذى أوجده قدره التعس فى هذه الدنيا .

فمضت به الأيام ، متوجسًا خائفًا على صحة (عادل) وأيما خوف .. فكان يهب لأول بادرة لنجدته ، وكنت أراه ، وأفهم دوافع رعبه وخوفه وتوجسه . فأحاول قدر استطاعتى إدخال الطمأنينة إلى نفسه عبثًا .

رأيته يومًا يعد موقد الفحم فى أشد أيام الشتاء بردًا ــ كان (عادل) يفضل التدفئة بالفحم على ما عداه من وسائل التدفئة

الأخرى ، لما فى الجلوس أمام موقد الفحم من رومانسية . فقلت للصبى : لماذا لا تترك لنا مهمة إعداد الموقد يا (على) .. دع هذه المهمة للخدم .. إنك تنازعنا أعمالنا البيتية .

فقال ناسيًا تحفظه :

قد يأتى أبى مبكرًا ، لشدة البرد هذه الليلة .. إنه كما تعلمين متوعك .

فرددت ، بدهشة حقيقية ، حيث كنت أعلم أن (عادل) بصحة جيدة ، وليس به أثر لأى وعكة .

كلا إنه ليس متوعكًا .. لست أدرى لماذا تتوهم ذلك .. ثم لنفرض أنه كذلك ، فهذا لا يلزمك بإعداد الموقد واتساخ يديك .. إننى أحظر عليك القيام بمساعدة الخدم ، دون أن أطلب منك ذلك .. يجب أن تنتبه إلى دروسك يا (على) .. لقد قربت أن تنهى مرحلة الثانوية ومن ثم دخول إحدى الكليات .

فقال بألم مكبوت ، على غير رغبة منى إثارته فيه :

كيف يتسنى لى ذلك ، طالما أنه ليس لى اسم ، أو هوية أنتما ؟.. كيف يكون فى مقدورى اجتياز الثانوية .. أنسيت ، وأنت التى قمت بإيداعى المدرسة هذه ، إنى لم أقيد فى السجلات الرسمية ، ولولا المبالغ المجزية التى دفعت ، والشروط التى اشترطتها هذه المدرسة الخاصة عليك لما قبلتنى أيضًا .

فقلت بأسى . وأنا غير واثقة مما أقول .. لا تحمل همًا .. سأقنع والدك عندما يحين الأوان .

ــ لقد فات الأوان لإقناعه .. إن الفكرة رسخت فى ذهنه طيلة خمسة عشر عامًا .. وكلما طالت المدة ، وتقدم به السن ، زادت الفكرة رسوخًا أكثر فأكثر .

فقلت مستنكرة : عن أية فكرة تتحدث ؟

فنظر إلى نظرة من يقول أنت خير من يعلم ما أعنى .. ولكنه لم يتفوه .. حيث اغرورقت عيناه بالدمع فترك ما بيده ، وغادر المطبخ مسرعًا متظاهرًا بالبحث عن المروحة لتهوية الفحم .

فشعرت بحنان طاغ يغمر فؤادى ، وبألم ممض لتصورى مصيره كما يراه هو .. وقررت أن أقف موقفًا صارمًا من زوجى .. سوف أخيره بين الاعتراف بحق الصبى فى الحياة والانتماء إليه - ومن ثم التخلص من ذلك المستند البغيض الذى يجيز له استعمال (رقم واحد) كرديف لصحته - وبين بقائى كزوجة له ..

نعم لو بلغ الأمر أن أخيره بين البقاء معه ، أو إتلاف ذلك المستند .

وصممت على تحين الفرصة الملائمة لخوض الموضوع وقد تناسيت أننى آليت على نفسى أن ألجم لسانى عن مناقشته فى موضوع الصبى ، بعد النقاش الحاد ذلك . لقد تناسيت ذلك واستسهلت كل صعب فى سبيل إنقاذ الصبى من وضعه الشاذ .

وحتى عندما حانت الفرصة ، ساعة صفاء بينى وبينه ، طلبت منه إتلاف المستند البغيض ، وخيرته بين بقائى معه ، أو الاحتفاظ بالمستند .

وفى لحظة خاطفة انقلب (عادل) من عاشق ولهان إلى وحش كاسر مشرعًا أنيابه . فهب نافضًا نفسه من قربى وهتف صارخًا بغيظ شديد :

لقد اخترت المستند .. إليك عنى .. إنى لا أعبأ بك .. إن كنت تظنين أنك مستطيعة إخضاعى إلى الأبد فأنت واهمة ، بعدًا لك ، بعدًا ..

أسقط فى يدى .. وأحسست أننى أخطأت خطأ فادحًا بتخييره .

ربما كنت مبالغة فى تقييم محبته لى .. وحفاظًا على ماء وجهى ، انسحبت إلى غرفة الصغير (حازم) للنوم عنده متظاهرة بالغضب الشديد ، وفى داخلى أرتعد فزعًا .. لو قرر (عادل) التخلى عنى ، سيبقى الفتى تحت رحمته .. إننى أعجز من أن أنفذ قرار الاختيار . رغم إحساسى المكثف بالمهانة .. لكم كرهت (عادل) فى تلك اللحظة بالذات .

وكأن هذا الموقف العاصف بيننا فى تلك الليلة أضعف موقفى أمام (عادل) فيما تلا من أيام ، إذ أخذ يهدد بين آن وآخر بإعادة الصبى إلى دار الأيتام .

مضى على ذلك الموقف قرابة الشهرين .. وكان الوقت عصرًا .. أقبلت الخادمة تدفع عربة الشاى أمامها إلى غرفة الجلوس ، حيث العائلة بكاملها .

(عادل) يجلس على أريكة كبيرة ، يتصفح بعض الصحف اليومية ، وينظر إلى ساعته بين آن وآخر ، كى يذهب إلى عمله .. أما أنا فقد جلست على أريكة مفردة جامعة قدمى تحتى ، أنظر فى متابعة مستغرقة إلى جهاز التلفاز ، (حازم) الصغير الأشقر الأكثر شبها بى من أبيه ، فى حركة دائبة ما بين أكتافى ، وأكتاف أبيه . أو راكضًا فى وسط الغرفة . قالبًا مخربًا كل ما تطوله يداه . (رقم واحد) أى (على) ، فى ركن قصىّ ، يتخذه دائمًا عندما يكون فى حضرة أبيه ، أو حتى عندما يكون (عادل) متواجدًا داخل المنزل . ولو حدث وغير مكانه ، يخيل لنا أنا وهو ، أن الضيق يكسو ملامح أبيه . وكان الصبى يتصفح مجلة رياضية .

أحسست بالضيق من قفزات ابنى ، فصرخت فيه فجأة :

ألا تكف عن هذه الحركات اللولبية ؟! اذهب .. اذهب حيث أخوك .. إنك تحجب عنى التلفاز .. اذهب هناك انظر معه فى المجلة ..

وعلى حين غرة استشاط (عادل) غضبًا ، وصاح دون وعى منه :

ما هذا الهراء .. ماذا يقال .. كيف أسمع عن أخ لـ(حازم) .. إنه ليس إلا .. ليس إلا ..

هببت واقفة على عجل ، مستكثرة ما يقال أمام الفتى .. وقبل أن أترك لغضبى العنان .. التفت إلى الفتى ، غامزة له بطرف عينى ، مبتسمة على الرغم منى ، كى أخفف من وقع الحديث عليه .. طلبت منه فى رجاء أن يصعد إلى غرفته .

كان (عادل) يهدر غير عابئ بمشاعر أحد : يجب أن نلتزم بالمسميات العملية للتجربة .. إن الذى انجبته ، ليس ابنًا لى .. إنه امتداد لى .

لأول مرة لم ينصع الفتى إلى طلب أطلبه منه . بل هب واقفًا هو الآخر .. مشيرًا إلىّ بعدم الكلام فى توسل ورجاء ، اقترب من (عادل) ، ولأول مرة أيضًا يناديه فى وجهه بلفظة أبى ..

كانت هذه اللفظة قصرًا على التداول بينى وبينه فقط ، عند الحديث عن (عادل) .. فأقول له :

أبوك .. ويقول لى .. أبى .. ولكنه لم يلفظها أمام (عادل) .. حيث لم يخض معه حديثًا مطولًا .. سوى الإجابه على سؤال ما .. أو الاستجابة لأمر ما .

قال الفتى :

أبى ..

ـ لست أبا لك .. ألا تفهم ؟..

رد الفتى بخنوع أكثر :

أنا أكثر من ابن لك .. الابن تشترك مع زوجتك فى إنجابه .. إنما أنا بضعة خالصة منك .

فقال (عادل) ساخرًا :

نعم .. جيد .. أنك تفهم .. أنت نفسى .. ومن حقى التصرف فى نفسى ..

فقال الشاب الصغير :

وأنت أيضًا نفسى .. فهل .. فهل لى حق التصرف فيك ؟

فقال (عادل) مغيظًا أكثر فأكثر :

جيد جدًا .. هكذا إذن .. كلا .. كلا .. أنا الأصل وأنت الصورة .. أنا الذى أوجدتك ، ولم توجدنى أنت .. طبعًا لا يحق لك أى شىء فى .. لا يحق لك حتى مخالفتى الرأى .. أفهمت ؟.

هجمت على الصبى ، وجررته قسرًا إلى غرفته ، خوفًا من تطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه .. وهناك أشبعته تقبيلًا ، وتوسلًا بأن يهدأ ، وأن يدع الأمر لى أتصرف فيه بمعرفتى .

وذهبت أنا الأخرى إلى غرفتى ، وأغلقت للباب على خوفًا من الصدام مع (عادل) ، بما لا يجدى ، منتظرة فرصة من الهدوء أفضل . وخوفًا من أن ينفذ تهديده الدائم ، ويعيد الصبى إلى دار الأيتام . ومرت العاصفة بسلام .

★ ★ ★

وفى يوم آخر ، ليس ببعيد ، وبعد عودة (رقم واحد) من مدرسته . دخل علىّ غرفة الجلوس ، ليرانى جالسة وحدى ، أهدهد الطفل (حازم) ، كى ينام القيلولة ، بعد أن أطعمته غذاءه .. وحالما رأيته . همست له :

(على) .. أسرع لتغير ثيابك المدرسية .. إن أباك على وشك المجىء .. ستجد غذاءك فى غرفتك ..

قلت له ذلك لأن من المحرم عليه ، تناول الغذاء معنا على نفس المائدة .

فرد علىّ بنفس النبرة الهامسة .. ماما لو قلت لك قولًا .. هل تغضبى ..

ـ ولِمَ أغضب منك .. فالأم لا تغضب من بنيها ، مهما قالوا ، أو فعلوا . وإنما قد تغضب إذا أصابها الخوف عليهم ، وليس منهم .. قل يا حبيبى ما تريد ..

فقال :

إنك أمى بالحمل والولادة ، بالإضافة إلى أنك تعتبرين أمى بالرضاعة ، حيث قال مدرس التربية الدينية ، إن التغذية من الدم ، مثل الرضاعة من الحليب .

ضحكت .. أعرف هذا ..

ولكنه أردف بجدية .. وأبى هو نفسى ..

ـ علميًا .. نعم .

ـ لقد سمعت من أستاذ التربية الدينية ، أن زواجك من (عادل) حرام وباطل .. وأن ..

فصرخت به .. ماهذا الهراء .. ما هذا .. الذى تقول ؟.. ثم لماذا تقول (عادل) ، بدلًا من قولك أبى ؟.

فقفز (حازم) من حجرى ، مستغربًا لصرختى ، فأعدت رأسه قسرًا قائلة له : نم .. نم ..

فرد (رقم واحد) :

لأن (عادل) هو أنا .. كيف أدعو نفسى أبى .. أنت غضبت ..

ـ كلا لم أغضب منك ، وإنما من أستاذ التربية الدينية هذا ..

استطرد الفتى :

إنه يقول ، يعتبر (عادل) ابنا لك أيضًا .. وإن لم تنجبيه .. لأنك أنجبت جزءًا من نفسه .. وإنه .. أنا ، وهو ، توأم ولكن ليس بصفة الأخوة ، وإنما بصفة المماثلة .

اصمت يا (على) .. اصمت .. ألا تعلم ، لو أننى تركت (عادل) ماذا سيحل بك .. إننى لم أبق معه إلا من أجلك ، ولحمايتك .. إننى لم أحبه قط .. ولن أحبه بعد هذه المدة .. إياك والتفوه بمثل هذا الحديث أمامه .. أو أمام أى امرئ آخر . لا تناقش أستاذ التربية الدينية فى مثل هذه الأمور .. اصمت .. اصمت .. بالله عليك ..

وقفز الصغير مرة أخرى من حجرى ، ودون أن يفهم موضوع الحديث ، خاض فى حديث آخر ، ظانًا أنه نفس الموضوع .. فقال متسائلًا ، موجهًا الحديث إلى (رقم واحد) .

(على) .. (على) .. هل أنت أخى .. ماما تقول إنك أخى .. بابا يقول لا ..

فقال الصبى مغيظًا :

بل أنا أقرب لك من جهة أبيك ، أكثر من قربى لك من جهة أمك ..

ومن الذى أنجبك .. أليس ماما ؟..

ولم يكن (رقم واحد) ، يريد أن ينكر أمومتى له ، ولكن لفرط غيظه رد .

كلا .. إنه أبوك الذى أنجبنى ..

فقال (حازم) بهدوء .. وهل كبر بطنه مثل جارتنا (خلود) ؟..

أزالت عبارة (حازم) هذا التوتر الذى ساد الغرفة ، فغرقنا فى الضحك ، نحن الثلاثة .

كان (عادل) عائدًا لتوه من مكاتب شركته ، يحمل بيده رزمة من الأوراق داخل حافظة جلدية .. دون ريب سمع الحوار الدائر بين حازم و (رقم واحد) ، دون أن نشعر به ، كان يقف على عتبة

الغرفة عندما ابتلعنا نحن الثلاثة قهقهتنا .. دق العتبة بقدمه ، وكرّ راجعًا مهتاجًا ، قبل أن يلج الغرفة علينا .. لعله خشى أن يخرج عن طوره كعادته كلما تطرق الموضوع بشأن (رقم واحد) .. فيفسد الأمر بينى وبينه فى هذا اليوم الذى يحرص أن على يكون سعيدًا ، لأنه عيد ميلادى الخامس والثلاثون . وكنا أعددنا احتفالًا صغيرًا يضمنا معًا .. أنا وهو فقط .

دخل غرفة مكتبه محنقًا .. ورمى برزمة الورق عليه .. كانت تلك المحاورة الساذجة بين ابنه وتوأمه ، مثل القشة التى قصمت ظهر البعير . قال لى وأنا أدخل المكتب خلفه :

لقد تحملت هذا المسخ سبعة أعوام .. ولا أستطيع المزيد .. يجب إعادته إلى دار الأيتام ، وإلا فسوف يفسد كل شىء علىّ .. لقد قررت قرارًا لا رجعة فيه .

ولكن عندما دخل حازم خلفنا فى توجس ، ناداه ، وأجلسه على ركبتيه ملاطفًا فى حنو كبير .

أخذت أحس بتقزز ، ونفور شديدين ، كلما أقبل (عادل) علىّ ملاطفًا . بسبب حديث أستاذ التربية الدينية ، الذى نقله لى (رقم واحد) ، لقد أصبحت أعصابى مرهقة ، وفى حالة من التوتر البالغ ، والحيرة التامة ، وكانت حالتى النفسية محطمة تمامًا ، عندما أبلغنى (عادل) عن عزمه على إعادة (رقم واحد) ، إلى دار الأيتام . فلم أجد فى نفسى القدرة على مناوأته . فاشترطت عليه فقط ، أن أعيده أنا بنفسى .

وفى آخر ليلة كانت لـ(رقم واحد) فى المنزل الكبير ، جلست على حافة سريره فى غرفته بالطابق الثانى ، بالقرب من قدميه اللتين تشبهان قدمى (عادل) .

كان الصبىّ مستلقيًا دون غطاء .. قلت له بتوتر لم يخف عليه :

الطقس حار اليوم . أليس كذلك ؟.. هل أوجه هواء التكييف ناحيتك ؟..

ولما أجاب بالنفى . قلت له بنفس نبرة التوتر ، التى لم أستطع التغلب عليها :

(على) .. يجب أن أبلغك شيئًا .. ويجب عليك الإصغاء إلىّ تمامًا .. ويجب أن تثق بى مهما بدا الأمر غريبًا عليك أو مؤلمًا لك . ثق بى ..

لم يعر الفتى اهتمامًا كبيرًا ، لكل هذه المقدمة . فقال ببساطة :

ما الأمر .. إنك تعلمين كم أثق بك .. ليس لى بهذا العالم كله من أثق به غيرك ..

قلت .. أعلم .. أعلم .. ولكن يجب أن تفهمنى جيدًا ..

حسنًا ما الأمر الذى يجب على أن أفهمه ؟..

قلت بنبرة مخنوقة .. سوف أعيدك غدًا إلى دار الأيتام ..

بوغت الفتى ، وصدم .. فجلس معتدلًا قائلًا : لماذا ..؟ .. ماذا فعلت ؟.. لم أخطئ أبدًا ..

دعنى أتم حديثى .. اصغ إلى يا (على) ..

واستطردت .. يجب أن أعيدك أنا .. لا أبوك .. كى أستطيع زيارتك ، وكى أستطيع فيما بعد تدبير أمرك ..

فقال الفتى بصوت باك .. ولماذا تريدين إعادتى .. ألم تعودى تحبيننى ..؟

- إننى أحبك كل الحب .. هل هناك أم تكره ابنها ؟. وأمسكت بيده .. لا تخف لقد قررت أعادتك بيدى ، كى تكون لى الكلمة على مديرة دار الأيتام .. إن أباك قرر إعادتك إليها .. وعندما يفعل ربما يصدر أمرًا بحرمانى من رؤيتك .. ولكن عندما أسبقه أنا

وأعيدك .. فإنه لا يتخذ مثل هذا الإجراء .. سوف أزورك كثيرًا ، سرًا ..

ـ المديرة سوف تخبره كعادتها ..

ـ كلا .. أنا التى ستودعك لديها .. وأنا التى ستدفع لها المصاريف .. وسوف أجزل لها العطاء .. سأدفع لها مضاعفًا .. سأغريها بالمال .. إنها لا يهمها إلا ما تقبض .. سأودع لها رقم هاتف سيارتى .. إن أباك لن يرد عليه .. بحيث إذا احتاجت أى شىء بخصوصك يكون اتصالها بى ، سأسحب ملفك القديم .. وأفتح لك ملفًا جديدًا باسمك (على) .. يجب أن تثق بى .. كل هذا إجراء مؤقت .. لا تخف ، ثق بى فقط .. غدًا باكرًا يجب أن تذهب ، سنسبق أباك ، قبل أن يتخذ أى إجراء ..

ـ إنه ليس أبى ، إنه لدّ لى ..

ـ لا تقل هذا .. لا بأس لا تيأس أبدًا .. سوف تنصلح الأمور لاحقًا .. بإذن الله ..

وبكى الصبى ، فطوقته .. وبكيت معه ، بصمت دون نشيج ، ولكن دموعى صبت مدرارًا .

فككت ذراعيه من حول عنقى وقبلته ، وأنا أقول له ،.. اجمع كل ما ترغب فى أخذه من حوائجك قبل أن تنام .

ولم ينم ..

★ ★ ★

أما (رقم واحد) فقد قال عن تلك الواقعة .

لم أنم فعلًا فى آخر ليلة لى فى منزل أسرتى ، وفى الصباح ؛ عندما دخلت غرفتى القديمة فى دار الأيتام ، أحسست كأن الأرض تميد تحت قدمى ، فجلست على السرير متخشبًا .. أفكر .. إن طاقم المدرسة هو .. هو ، كما تركته قبل سبع سنوات ، نفس الوجوه ،

نفس المديرة ، نفس الخدم .. لم .. لم يتغير شىء فى الدار غير زملائى وزميلاتى ، هم وحدهم الذين تغيروا ، جاء الجديد منهم ، وكبر القديم فيهم ، وذهب البعض ، لست أدرى إلى أين .. أنا نفسى تغيرت ، لم أعد ذلك الطفل المشاكس .

عند أول دخولى الدار ، كانت المعلمات الوعرات ينظرن إلىّ نظرة عدائية .. لعلهن يتكرن عنادى ، عندما كنت طفلًا .

بقيت على سريرى طيلة فترة الصباح متخشبًا ، حتى دق جرس الغذاء ، الذى أعرفه تمام المعرفة ، فدقاته ما زالت ترن فى أذنى ، كما كانت قبل سبعة أعوام .. إننى أعرف الطريق إلى غرفة الطعام أيضًا ، قمت دون أن ينادى أحد علىّ ، لاحظت نظرات الدهشة والعجب ، تتبادل بين مجموع المدرسات والمشرفات ، ونحن على وجبة الغذاء ، حيث لم أعر أحدًا انتباهًا سوى طبق زادى ، إنهن فى عجب من هدوئى .. حتمًا إنهن يفكرن فى الكياسة المفاجئة التى طبعت تصرفى .

ودون شهية منى ، أخذت التهم ما فى طبقى ، حتى جئت على آخره ، كى أبين مدى طاعتى وأدبى ، وأنى لن أرفض الطعام كما كنت سابقًا .. وعدت إلى غرفتى هادئًا .. وفى الصباح التالى ، ذهبت إلى قاعة الدرس ، بمجرد الانتهاء من وجبة الإفطار ، وسماع الجرس الداعى إليه .. وظللت أثناء إلقاء الدرس منتبهًا لكل ما يقال ، برغم أن الذى أسمعه بدا لى بديهيًا أعرفه كل المعرفة ، حيث أنى سبقت هذه المرحلة وأنا خارج الدار . وأيضًا نتيجة لقراءتى المستديمة وأنا هناك ، بحيث جمعت حصيلة لا بأس بها من المعلومات فى شتى المعارف ، ما أتفوق به تفوقًا كبيرًا على ما يقال فى قاعة الدرس . ولكنى أخذت أصغى ، وأصغى .. أخذت أصغى لكل أمر يصدع ، ولكل جرس ينادى ، ولكل درس يلقى .. دون تذمر أو كلل .

كنت أريد البرهنة ، على أنه حدث تغيرّ ، وأن الفضل لهذا التغير لا يعود إلى أى امرئ موجود فى هذه الدار بأية حال من الأحوال .

أثناء ذلك ، كنت أنتظر فقط يوم الزيارة الأسبوعية ، وكنت أعرف موعدها ، سابقًا . ولكنى كنت محرومًا من استقبال أحد فيه .. أما الآن فالترقب يجعل قلبى يخفق كلما اقترب أوانه .. سوف أرى أمى ، سأرجوها أن تخرجنى من هذا المكان .. قبل أن أجن .

ومضى الأسبوع الأول ، وهلّ يوم الجمعة ، وهو اليوم المحدد للزيارة واستقبال ذوى النزلاء .. نودى على من نودى .. وترك من ترك دون مناداة .. وكنت من المتروكين .

حزّ فى نفسى ألم ممض .. وتعجب ودهشة .. ولكن لم أفقد ثقتى بأمى ، سوف تأتى .. سوف تأتى وفى اللحظة التى كنت أخاطب فيها نفسى ، حانت منى التفاتة .. فرأيتك على مقربة منى ، صبية فى نحو الرابعة عشرة ، أو ما يقارب منها .. تنهمر الدموع من مآقيك بغزارة . أخذت أنظر إليك بذهول . كنت أظن أنى وحدى الحزين .. عندما رأيت نظرتى الفاحصة تنصب على وجهك ، عبست فى وجهى ، ومسحت دموعك بظهر كفك ، ورفعت رأسك فى شموخ .

نهضت من مجلسى مقتربًا منك ، وكنا نفترش الأعشاب فى الحديقة قرب باب الزيارة ، وعندما وقفت قريبًا منك . قلت : اسمى (على) .. ما اسمك ؟

فرددت علىّ بل اسمك (واحد) .. لماذا تكذب ؟

صدمت من ردك الشرس .. وصنفتك فورًا إلى فئة المدرسات الوعرات .. عدت إلى مجلسى ، وشعورً يصاحبنى بأن وجهى

ملتهب بالنار . لست أدرى لماذا لانت نظراتك ، فاقتربت منى . أدعى (أمل) ..

فلم أعرك التفاتًا . كانت نفسى عازفة عنك .. افترشت الأعشاب على أرض الحديقة بالقرب منى .. بقينا صامتين ، إلى أن دق جرس العودة إلى غرفنا ، معلنًا انتهاء الزيارة ، بعد انصراف الزوار . فعدت إلى الداخل مع جموع الطلبة والتلاميذ .

أتتكرين ؟.. لم أرك طيلة أسبوع كامل ، ولكنى كلما تذكرتك ، اعتصر قلبى .. كيف عرفت أن اسمى (واحد) .. وهى ليست معى فى الفصل ، ترى أتعرف بقية تفاصيل حياتى ؟.. لماذا عاد الناس كلهم ، المدرسات والتلاميذ إلى مناداتى (واحد) ؟. ألم تنبه عليهم أمى باسمى الجديد (على) كما وعدتنى ؟. لِمَ لم تحضر فى يوم الزيارة ؟. واستولى تفكيرى فى أمى على ما عداه .

فى نهاية الأسبوع التالى ، كان لدى يقين شديد ، بأن أمى سوف تزورنى فى يوم الزيارة . إذ لا يعقل أن تتركنى هكذا .. أصبح قلبى شديد الوجوب ، كلما رن فى أذنى لعلعة صوت المدرسة بين كل آونة وأخرى ، مناديًا الطلبة والتلاميذ كلًا باسمه ، مدعوين إلى مقابلة ذويهم أو أقربائهم ، كادت مدة الزياة تنتهى ، ولم يناد أحد باسمى .. لا (على) ، ولا (رقم واحد) .

وفجأة ، سمعت صوتًا على مقربة منى .. لن يأتى أحد ، لزيارتنا ..

التفت مذعورًا .. وكنت أنت ، ولكن لإشغال كل اهتمامى بصوت المدرسة المنادى ، وتعلق أنظارى بالباب ، الذى يلج منه التلاميذ ، عند المناداة عليهم ، لم أفطن إليك ، وأنت تقبعين إلى جوارى ، فى صمت رصين .. تنظرين إلىّ بطرف خفى .. لم تكونى تبكين حينذاك ، كما فى الأسبوع الماضى .. ولكن ملامحك كانت تكاد تنطق بالحزن والأسى .

رددت عليك بعصبية .. بل ستأتى .. لقد وعدتنى .. أخشى أن يكون أصابها مكروه ..

سألتنى : أمك ؟..

ـ نعم .. ماما ..

بان الشك فى وجهك ، ولكن يبدو أنك خشيت أن تكذبنى ، فتقولى لى إنه ليس لى أم ، وإنما أب فقط ، وأنه يجب ألا أكذب ، فالكذب حرام .. لعلك خشيت أن أغضب كما فى الأسبوع الماضى .

ومع ذلك فقد قلت على سبيل تعزيتى عما أنا فيه : إنه ليس لك أب ، أو أم ، تنتظرين زيارتهما .

فسألتك : كيف ..؟.. من أتى بك إلى هنا ؟

لا أعلم .. يمكن أن يكون أحد التقطنى من على قارعة الطريق .

دهشت أنا ..

كيف تلتقطين من على قارعة الطريق ؟.. من الذى أنجبك ..؟..

نعم أذكر ، أنك ضحكت عن أسنان لؤلؤية ، فسرى عنى لأول مرة منذ أسبوعين .

وقلت لى فى لهجة من يعجب من سذاجة شخص أمامه :

أمى ، وأبى طبعًا ، تسببًا فى إنجابى إلى هذه الدنيا .. ولكنهما تخليا عنى خوفًا من الفضيحة .

برغم تجاوزى الخامسة عشرة آنذاك ، إلا أنه لم تكن عندى فكرة واضحة عما يسمى باللقطاء . فقد تركت الدار وعمرى سبعة أعوام ، وفكرتى عن المشاكل هى مشكلة إجراء التجارب على بنى الإنسان ، وعشت بعدها خارجًا ، فلم يطرق سمعى ما يوضح لى هذه المفاهيم .. كل ظنى أن كل المشاكل تنتج عما يشابه مشكلتى .

فسألتك على الفور :

أو لك أم ، وأب ..؟..

أما ، كيف يأتى الإنسان إلى هذه الدنيا ..؟. لا تكن ساذجًا .

وضحكت مرة أخرى .. فخجلت ورددت مسرعًا :

أعرف .. أعرف ، ولكنى مثلًا لدى أب فقط .. إن التى أدعوها بأمى ليست أما لى ..

فقلت .. ألم تحملك وتنجبك ..؟..

فهمت أنك تعرفين قصتى ، من ألفها إلى يائها .. يبدو أننى مشهور فى محيط الدار .. أنا الذى لا يعلم فقط .. فأجبت : نعم ولكنى لست من صلبها .

فسألتنى مكابرة .. كأنك تريدين أن تقنعينى بأننى إنسان عادى مثل كل الناس ، لى أب ، وأم أيضًا .

ـ ألم تتغذ من دمها .. وأنت جنين ؟. إذن فهى أمك ..

ـ كيف ..؟. هل كل ما نتغذى عليه ننتمى إليه ؟ .. إننا نتغذى على لحوم الحيوانات ، وثمار الشجر ، والنباتات ، فهل نحن ننتمى إليها . نعم لقد غذتنى من دمها غذاء مهضومًا . ولكن هذا لا يعنى أننى من صلبها .

فبُهرت من سعة معلوماتى بهذا الشأن بعد ما بدا من جهلى بشأن وضعك . فقلت لى : تعرف شيئًا وتجهل آخر .. ولكن اشرح لى كيف لا تكون من صلبها وقد حملتك وولدتك .

الكروموسومات والجينات الوراثية المحمولة عليها ، هى التى تحدد الأصل الذى انحدر منه ..

إننى أحمل كروموسومات وجينات والدى فقط .

ـ كيف عرفت كل هذا ؟.

ـ ألم تقولى منذ لحظة : تعرف شيئًا وتجهل آخر .. إنها لب مشكلتى . كيف لا أعرفها ..

التوالد من والد واحد .. إننى قطعة غيار لتوأمى .. قرأت الكثير حول هذا الموضوع ، عندما كنت فى منزل توأمى ، لأنه ليس لى من متنفس غير القراءة والدراسة ، محظورًا علىّ الخروج ، أو مقابلة الناس .. إلا عند الذهاب إلى المدرسة ، وكان ذلك يتم خفية عن أبى .. أو بالأحرى عن توأمى .

أخرج من باب الخدم وأدخل منه . كاللص المتسلل .. أمى هى التى ألحقتنى بالمدرسة ، ويسرت لى سبل الذهاب والإياب ، بوساطة عربة للأجرة تقلنى كل يوم . ومع ذلك فأسمى ليس مدرجًا فى السجلات الرسمية الخاصة بالمدرسة ، أقدم الاختبار ، وأحصل على الدرجات التى يتم رصدها فى ورق خاص يقدم لوالدتى ، بدلًا من الجهات الرسمية ، كما هو المعتاد مع بقية التلاميذ والطلبة .. وأنا أيضًا لا أستطيع الخروج من المنزل ، محظور علىّ ذلك من أبى ، حتى للنزهة لا أخرج معهم ، كان أبى لا يريد أن أعرف شيئًا عن الخارج .. ولكنى عرفت .. عرفت كل شىء يدور حول هذا العالم .. حتى الأمور السياسية والاجتماعية ، عرفتنى بها والدتى العظيمة .. كانت تقضى معى الساعات الطوال تحكى لى ، وتحكى .. قد تسألوننى لم الأمور السياسية طالما أنا لا أستطيع المشاركة فى الحياة العامة العادية ، فما بالك بالأمور السياسية ؟ ولكنها المعرفة .

المعرفة المجردة .. هكذا كانت تقول لى .. إنها تحبنى جدًا . وأنا كذلك .. ولكن لماذا لم تأت لزيارتى لماذا ؟..

فأردت وأنت الفتاة الصغيرة ، أن تشغلينى عما أنا فيه من حزن وقلق فقلت :

أنا أيضًا لم يأت أحد لزيارتى .. لم يأت أحد قط منذ دخولى هذه الدار .. ولم أخرج خارج هذا المبنى إلا فى النزهات الجماعية التى تعملها الدار .

فقلت أنا :

عندما كنت فى هذه الدار قبل سبع سنوات ، كنت ممنوعًا من الخروج فى هذه النزهات الجماعية ، وأظن أن ذلك سوف يسرى على الآن .. أذكر كم كان ذلك الحرمان يؤلمنى ألمًا ممضا .. كنت أقضى الليل بطولة أبكى .. لم أكن أعرف السبب آنذاك .

ـ كنت ممنوعًا من الخروج ؟.. هذا إذن السبب فى أننى لم ألتق بك أثناءها .. ولكنك عوضت فى السنوات السبع التالية .

كان هذا ردك علىّ مما أضحكنى لأول مرة منذ أكثر من أسبوعين ، وعقبت على قولك :

وفى السنوات السبع القادمة لن أخرج .. سيجرى على المنع فيما أظن .

ـ لِمَ ؟.. قلتيها فى استنكار .

وكانت إجابتى .. أننى شخصية اعتبارية .. كالمركبة .. أو قطعة أثاث تستخدم عند الحاجة .

لا يهم سوف أراك كل يوم زيارة .. أنا سأزورك ، وأنت تزورنى .

قلت ذلك ضاحكة .. لولا ضحكاتك القصار تلك لما مرّ علىّ ذلك اليوم مرورًا رحيمًا .. وهو اليوم الثانى للزيارات ، ولم تحضر والدتى فيه .. ومع ذلك كنت أستهجن رؤيتك للموضوع .. كيف لا تنظرين إليه فيما يتعلق برؤيتنا لبعضنا ؟

لِمَ لم تأت ..؟ ..

وكان سؤالى عن أمى ..

فرددت : لن يحدث شىء ، إن لم تأت .. اعتبر أنها لن تأتى ، كى ترتاح .

كلا .. كلا سوف تأتى .

وابتعدت عنك مغيظًا .. وكان تخمينك فى محلة .. حيث لم تأت لزيارتى قط .

هذا ما رواه لى (رقم واحد) عن انطباعه عن أول وثانى لقاء لنا .. أما انطباعى أنا .. فيختلف عنه تمامًا .

عندما تطفل (رقم واحد) على حزنى فى أول يوم كلمنى فيه .. كرهته .. كيف يستغل عذابى .. ليحدثنى .. إنه ليس إلا مسخًا ، كما تدعوه المديرة والمعلمات .. إنه يستغل عذابى ليرفه عن نفسه بالتحدث معى .. إنه ليس إلا رقمًا .. ها هو قد عاد إلى الدار بعد خروجه منها ، لابد أنه فشل فى التعايش خارجها .

هكذا كنت أراه .. كنت أعرفه منذ أن وعيت ، وأنا فى هذه الدار .. وكنت أعتبره إنسانًا غريبًا عن طبيعتنا نحن البشر العاديين ، كنا نحن زملاءه نحاول تجنبه والابتعاد عنه قدر الإمكان ، فلم نكن ندمجه فى ألعابنا ، وكانت شراسته وعناده سببًا آخر يجعلنا نتجنبه .. ويبدو أنه لم تكن به حاجة إلى صحبتنا فلم يحاول التقرب لأى منا .

وكنت أحمل عنه نفس الفكرة ، وهو على مرمى البصر منى ، منتظرًا والدته ، وأنا أبكى لأنى لا أنتظر أحدًا يزورنى فى ذلك اليوم .

ولكن بعد أن جابهته بتكذيبى إياه ، وعندما ذكر لى أن اسمه (على) ، شعرت بالذنب . فاقتربت منه ، لأعلن له أسمى . ولكنه لم يعبأ بى ، ويبدو أننى صدمته وآلمته أشد الألم .

وفى يوم الزيارة الآخر فى الأسبوع التالى . جلست بالقرب منه مفترشة الأعشاب مثله .. جعلت أراقبه ، كم هو متلهف إلى سماع اسمه ينادى عليه . حتى استطاع أن يشغلنى عن نفسى .. فأصبحت أتلهف معه على مناداته ، دون أن يدرى بى . حتى قلت له عبارتى التى لفتت نظره :

ـ لن يأتى أحد لزيارتنا .

قلتها فى محاولة منى لتعزيته . كنت ما أزال أراه غريبًا عنا نحن البشر العاديين .. ولكن ما إن استمر الحديث بيننا حتى اكتشفت الجانب الإنسانى فيه .. فلم أجد نفسى إلا وقد اندمجت فى الحديث متعاطفة معه فى مأساة وضعه الشاذ .

ولكن فى النهاية أغضبته مرة أخرى من حيث لا أقصد . كما مرّ ذكره .

★ ★ ★

أما سلمى فقد قالت عن سبب عدم زيارتها لـ (على) :

كل خططى باءت بالفشل .. لقد ذهب (عادل) إلى دار الأيتام ، بعدما أودعت الصبى بيومين فقط ، دافعة له وفرة من المصاريف . ذهب (عادل) إلى هناك وألغى الملف الجديد الذى استحدثته بطلب منى .. واعتمد الملف القديم ، ما عدا بند المصاريف الضخم ، اضطر إلى الموافقة عليه .

ومن ثم أصدر أمره بمنع الزيارة عن (رقم واحد) ، بما فيهم أنا ، وبعدم السماح له بالخروج خارج المبنى (دار الأيتام) ، تحت أى ظرف كان ، إلا بموافقته شخصيًا ، أو بطلب خطى منه .

كان هدف (عادل) واضحًا ، هو منعى أنا بالذات من الالتقاء بالصبى . لأنه لم يكن لأحد غيرى أن يهتم بأمره . كان هدفه أن يحول بينى وبين الصبى كى أنساه ، فلا تحدث مشاكل عندما يحتاج إليه .

باءت كل خططى بالفشل .. قلتها لنفسى ، عندما اكتشفت الأمر بعد ذهابى إلى زيارة الصبى فى يوم الزيارة المخصص . فقالت المديرة لى بكل لطف وكياسة . حيث لم تنس بعد المبلغ المجزى

المدفوع منى ، والذى أحرج (عادل) فاضطر أن يوافق عليه . قالت :

آسفة يا سيدتى .. أرجوك أن تقبلى عذرى . إن السيد (عادل) أعطى أوامر مشددة بمنع الزيارات عن (رقم واحد) .. خصوصًا زيارتك أنت !..

فوجئت ، ولكنى تمالكت أعصابى ، فلم أرد بسرعة ، لم أرد أن أخسر المديرة ، بعد أن كسبتها إلى صفى بسخائى معها . فلم أظهر الغضب ، أو الاحتجاج ، بل قلت مبتسمة :

لا بأس .. سوف أزورك أنت فقط ، ومنك أعرف أخباره وأطمئن عليه .

قلت ما قلت منتظرة ، لعل المستجد فى المستقبل يساعدنى على اكتشاف أمور ، أستطيع من خلالها تدبير أمر الصبى المسكين .

فردت .. أهلا بك فى أى وقت .. وأكرر أسفى ..

لا داعى للأسف .. إنك تقومين بما يمليه عليك الواجب فحسب .. عندما أستمع إلى أخباره منك ، أطمئن عليه ، كما لو كنت رأيته ..

وفتحت حقيبة يدى الثمينة المصنوعة من جلد التمساح . ودفعت لها مبلغًا آخر قائلة لها إن الصبى كبر .. قد يحتاج إلى مصاريف أسبوعية .

وكان هذا تلميح منى إلى أن هذا المبلغ سوف يدفع كل يوم زيارة .. ونهضت قائلة :

لا أريد أن أضيع وقتك الثمين .. لا تقلقى .. عندما أعرف أخباره منك كما لو كنت رأيته .

قلت هذا كأن الأمر لا يعنينى أكثر من ذلك ، مع أن قلبى كان ينزف دمًا ، وددت فى تلك اللحظة لو أن رقبة (عادل) بين يدى

لاعتصرها عصرًا . وددت أن أقدم على إهانته ، اشتمه . أى شىء يعبر عن غلى وحقدى عليه .. وتمنيت لو أطلب الطلاق منه .. تمنيت أى شىء ، إلا أن أعود إلى معاشرته مرة أخرى .

ولكنى عدت إلى المنزل دون أن أفعل أى شىء يعبر عما عانيته .

ومرت الأيام ، وحقدى على (عادل) يزداد .. وولعه بى أزيد .. ولكن عند حدود هذا الصبى لا تأثير لى عليه . هكذا كان (عادل) دومًا لا تأثير لانفعالاته العاطفية على أعماله الخارجة عنها ، وهذا سبب نجاحه فى كل عمل قام به . إنه قوى الشكيمة شديد المراس لا يقاوم . ولكنى فى النهاية ملكت نفسى ، لا تفيد معه المجابهة فهو عنيد ، وقد تفسد الأمور بيننا .. لا يفيد معه إلا حرب العقول .

سيرى إذن .. سيرى .

وتحول تفكيرى إلى الفتى ، فشعرت بأسى بالغ .. ياللصبى المسكين .. ياللصبى المسكين !!

هذا ما روته (سلمى) عن تلك الأيام .. أما أنا فقد لاحظت أن (رقم واحد) قد وجد بعض عزائه معى فلم يعد ذلك الفتى المهموم أبدًا .

مرت أسابيع عدة ، كنت ألقاه كل مرة فى يوم الزيارة الموعود . فأجلس إلى جواره على الأرض المعشوشبة ، منتظرة معه النداء على اسمه .. كنت أراه وهو يتوزعه الألم أحيانًا ، والسرور أحيانًا لوجودى معه .. يبدو فارغ الصبر ، وهو فى توقع لمناداته ، وأحيانًا يندمج معى فى حديث مرح ، وكنت أتعمد إثارته معه كى أشغله عما به ، أما أنا فقد نسيت شأنى تمامًا ، لم يعد يهمنى أن زارنى أحد أو لم يزرنى . لقد نسيت البكاء تمامًا .

أخذنا فى مبدأ الأمر ننتظر اللقاء الأسبوعى هذا بلهفة وشوق ثم لم نعد نكتفى به ، وقد توطدت علاقتنا ، وبدأت بشائر انفعالات متأججة مكبوتة ، مقيدة بالحرمان ، تطفو على السطح بجيشان .

فأخذت أخرج من الفصل الدراسى بعد انتهاء الدرس ، وأذهب إلى غرفته أو أنتظره على باب الفصل الذى يدرس به كى أرافقه .

ولكن حالما شُعِر بنا ، وبما نفعل . تصدت لنا المديرة ومجموع المدرسات والمشرفات ، وكل العاملين كل منهم أوقف نفسه رقيبًا علينا .. مُنعنا من الاقتراب من بعضنا البعض .. وكنت أنا أشد جرأة منه .. فعوملت بقسوة شديدة ، ومنعت من الاقتراب من غرفته ، أو محادثته . فى فصله طيلة الأسبوع .. وكذلك عومل أيضًا .

بعد ذلك تظاهر كل منا نحن الاثنان ، بأننا اكتفينا باللقاء الأسبوعى تحت أنظار الجميع .

وذات ليلة تسللت تحت جنح الظلام ، بعد أن نام الجميع ، تسللت إلى غرفة (رقم واحد) .. ومن ليلتها لم أنقطع عن زيارته ، إلا فى الليالى المقمرة ، أو الماطرة ، خشيت أن يكشفنى ضوء القمر ، أو لمعان البرق .

لم أعرف سببًا مقنعًا لحرمانى من زيارته ، وقد أصبح كل دنياى ، حيث لا دنيا لى قبله .

لم أفهم قط وجهة نظرهم ، ولم أقتنع بها حتى بعد أن قام (رقم واحد) بشرحها لى بينى وبينه ، حسب ما عرف من أمه ، أو من أستاذ التربية الدينية فى المدرسة التى التحق بها وهو خارج الدار ، أو من قراءاته المستمرة .. ولعلى كنت لا أريد أن أفهم شيئًا يتعارض مع رغبتى العارمة فى الجلوس إليه .

كانت جلساتنا الليلية تستمر إلى ما قبل طلوع الفجر بقليل ، فأعود

بسرعة إلى غرفتى ، وقد أنهكنى السهر والحب والنعاس ، فلا أستيقظ إلا متأخرة .. أما (رقم واحد) فكان حريصًا على أن يصحو كما هى عادته .. كى لا يلفت إلينا الأنظار .

وذات ليلة قال لى :

كل ما أخشاه أن يُكشف أمرُنا .. ويحجز بيننا .

وكانت هناك فكرة مختمرة فى عقلى ، فقلت على الفور .. لنهرب .. لنهرب .. هل نستطيع ..؟.. ضحك منى ساخرًا ، وقال فى مرارة :

ليس المهم أن نستطيع .. أو لا نستطيع .. لنقل إلى أين ؟.. وكيف نتعيش . إذ ليس فى ميسورى إدارة أى عمل .. كيف يتدبر عمل لشخص لا يحمل هوية وليس له انتماء ؟.. ألا تعلمين أنه ليس فى مقدورى أن أتم تعليمى خارج هذا المبنى .. أنت عندما تنهين تعليمك هنا ، ربما تذهبين إلى إحدى الكليات .. أما أنا فلأننى إنسان اعتبارى . لا أحد يعترف بوجودى .. إننى بدون أهل . بدون وطن . بدون انتماء من أى نوع .. لماذا أحببتنى يا أمل .. إن وضعك أفضل منى . صحيح أنك لقيطة ، ولكن الدولة تعترف بوجودك وفى حقك فى الحياة ، فتؤمن لك فرص الدرس والتحصيل ، وتؤمن لك العمل والوطن ، وقد تتزوجين ، وتكونين أسرة .. وتنسين ماضى حياتك التعس فى هذه الدار .. أما أنا فلا رجاء لى فى الحياة المديدة ، دون أن تقطع أجزاء من أوصالى .. إننى مهدد فى كل لحظة .. لنفترض أننى أهرب ، أين أختبئ .. كيف أسير بين الناس بدون هوية .. بدون اسم ، إننى رقم .. مجرد رقم فى سلسلة عمليات تجريبية تعسة من نوعى .. لنفرض أن أحدهم طلب منى إثباتًا لشخصيتى .. كيف أسير فى الليل ؟ بل كيف أسير فى وضح النهار .. وأنا خائف مهدد فى أية لحظة

بمساءلتى عن انتمائى ؟. كيف أتعيش وكل أبواب الرزق مغلقة فى وجهى ؟. ولو هربت كيف أتزوج ؟. فأنا ليس فى مقدورى الزواج منك يا أمل .. لأن ليس لدى اسم أقدمه لك .. رغمًا عنى سلبت الاسم .. دعينى فى هذه الدار ، أنتظر مصيرى المظلم فى أية لحظة .. إننى لست إلا بديلًا .. رديفًا .. قطعة غيار ، ليس غير ، لشخص محظوظ .. لا يوجد لمثلى مكان فى هذا العالم على سعته .. اهربى .. اهربى .. حتى أمى التى حملتنى وولدتنى ليست بأمى .. وهى أيضًا مكبلة بالقيود ، عاجزة حتى عن زيارتى .. إننى لم أفقد ثقتى بها أبدًا .. إننى أعرف أنها عاجزة عن زيارتى ، أو قد يكون جرى لها مكروه ؟ لست أدرى .. ليس لى إلا أنت .. وأنت عاجزة عن إعانتى .. فإن شئت فاهربى . لن أكون أنانيًا ، فأربط مصيرك بمصيرى .

أحسست أننى نكأت جرحًا غائرًا فى أعماقه .. ندمت على اقتراحى ، وتعلقت بعنقه أسترضيه وأنا أقول .. كلا .. كلا .. لن أهرب بدونك .. إننى أهرب من أجلك ، وسأبقى من أجلك .

هدأت نفسه قليلًا لجرعة الحنان التى أغرقته بها .. وبعد تفكير قصير قال :

إننا نعرض وضعنا للخطر ، بحضورك هنا كل ليلة ..

كثيرًا ما يخيل إلى أننى متعلقة به أكثر مما هو متعلق بى ، كان اهتمامه موزعًا بينى وبين أمه ، حتى أننى أشعر أحيانًا بالغيرة منها ، ولكنى كنت أكتمها بشدة ، أما أنا فكل ما لدى فى هذا العالم لا يعدو كونه هو . لذا فكل ما لدى من طاقة العاطفة تنصب فى مجراه .. قلت له تعقيبًا على قوله الأخير :

ماذا هم فاعلون .. أيعاقبوننا ؟.. أيضربوننا ؟.. لن أبالى سوف أحضر .. سوف أحضر كل ليلة .. كل ليلة ..

قال .. لو كان الأمر يقتصر على هذا ، لن أبالى أنا الآخر ، ولكنهم قادرون ، قد يحولوا بيننا بطريقة جدية ، كأن يسجنوننا فى غرف منعزلة ، يغلقون علينا الأبواب .. يراقبوننا .. إنهم أقوى منا ، ولهم السلطة المطلقة لتقييدنا بعذر حمايتنا من أنفسنا .. إنهم قساة لا يرحمون .. أنسيت ماذا كانوا يفعلون بى عندما كنت صغيرًا ، قبل سبعة أعوام ؟. أنت لم تكونى تعرفيننى حينذاك .

قلت .. بل أعرفك .. ولكنى لم أكن أهتم بك .. كانت لى مشاكلى . أنت الذى لم تكن تعرفنى ..

حقًا لم أكن أعرفك .. ليتنى فعلت منذ ذلك الوقت ، لكنا لعبنا سويًا .. ولكنت خففت العبء عنى كما تفعلين الآن .

فزدت من قبضة ذراعى حول عنقه .. وتساءلت .. ما الحل ..؟ ..

أن نقلل من لقاءاتنا ..

فككت ذراعى ، وقلت غاضبة ، وقد تأكد لدى أنه لا يحبنى بالقدر الذى أنا أحبه .. فقلت :

لا أستطيع .. لا أستطيع أن أنام طيلة الليل بمفردى ..

فقال محاولًا إقناعى : شىء قليل .. أفضل من لا شىء ..

ـ كلا .. كلا ..

فكر لحظة ، ثم قال .. إذن لتكن لقاءاتنا خارج غرفتى .. قلت مسرعة :

ـ فى غرفتى ؟

ـ سيان .. إن اجتماعنا فى أى من الغرفتين يعرضنا للخطر .. فقاطعته بتوتر وأنا على أهبة الاستعداد للعراك .

ـ إذن ..

ـ نلتقى فى أبعد مكان عن هنا ، خلف صالة الزيارات .. هناك نستطيع الإفلات .. سوف نراهم قبل أن يرونا ، فنهرب من إحدى

جهتى المبنى للصالة ، ومن هناك يعود كل منا إلى غرفته فى أمان .. ثم هناك بعض الأشجار الضخمة المتكاثفة ، ستصنع منها خميلة ، سأرفع بعض الأغصان الملاصقة للأرض ، وأربطها بالأغصان العلوية .. إنها ثلاثة أشجار ضخمة متقاربة جدًا ، يكونون شبه مثلث ..

فهمت وجهة نظره ، واطمأن قلبى فقلت .. وفى البرد ، والليالى الماطرة ؟..

الليالى الممطرة لن نخرج مثلنا الآن .. أما فى البرد فسوف نتشح ببعض الأغطية الخفيفة ، ثم سوف يدفئ بعضنا البعض .

ولماذا كل هذا التعب والجهد ، ونحن مرتاحان ها هنا ..

كلا .. مجيئك إلى غرفتى يعرضنا للكشف بسهولة ، ولا ملاذ لنا للفرار أو الاختباء .. ولا منجى لنا فى الإنكار بعد ذلك .. مما يعرضنا للفراق .. وهذا الشىء الذى لا أستطيع تحمله ..

سررت جدًا من عبارته الأخيرة ، فقلت امتحنه : ويعرضنا للعقاب ..

ليس مهمًا .. المهم ألا نفترق تحت أى ظرف .. اسمعى ، من نهار غد ، سوف أقوم بعمل الخميلة كلما رأيت سانحة لذلك .. إياك والاقتراب منها نهارًا ، كى لا تلفتى النظر إليها .

إن المكان بعيد عنك ، كيف تستطيع العبور إليه كل ليلة والالتفاف حوله ..

لكنه قريب منك .. أما أنا فسوف أذهب إليه من هنا .. سيكون أقرب لى منك ..

وأشار بيده إلى نافذة تطل على الناحية الأخرى من الغرفة مقابلة للباب تمامًا .

- إنها مرتفعة ..

لا يهم .. أستطيع تسلق بعض الأثاث ثم أقفز إلى الخارج ، إنها تبعد مترين فقط ، أو أقل قليلًا عن الأرض .. ولكن المشكل فى كيفية الدخول ثانية إلى الغرفة .. لذا سوف أنسج حبلًا متينًا من الأغصان ، كى أتسلق عليه عند عودتى .. وزيادة فى الحذر ، يجب ألا نلتقى سوى ثلاث مرات أو مرتين فى الأسبوع ..

كلا .. مرتان هناك .. ومرة هنا . إن فرصة اكتشاف المرة الواحدة أقل من فرصة كشف المرات الثلاث ..

حسنًا .. حسنًا .. اذهبى الآن .. إن الفجر يقترب .. غدًا يوم الزيارة ..

فتنهدت بحسرة قائلة ومن سيزورنا ..؟..

ضحك مخففًا عنى .. وقال : أنا .. سأراك غدًا ..

وقبلنى ، ودفع بى إلى الباب عنوة ، وأنا متشبثة بثيابه ..

وفى الصباح الباكر ، على غير عادتى كل يوم ، استيقظت مبكرة وهرعت إلى الحديقة .. وما أن وقع بصرى عليه ، حتى اتسعت ابتسامتى ، وابتسم هو بهدوء .. كان يلحظ نظرات المدرسات إلينا ، فلم يشأ أن يأتى بأى تصرف قد يستثيرهم .

حاولت الاقتراب منه زاحفة .. فحذرنى .

أنظارهم منصبة علينا .. إنهم يراقبوننا .. ابق مكانك .. وإلا نهرونا ..

فتوقفت مغضبة ، وقد غاصت الابتسامة من على شفتى ، ثم لم ألبث أن عدت إلى مرحى ، عندما أخذنا فى الحديث معًا .. كأنى لم أره من أعوام مضت ، وليس قبل فجر اليوم بقليل .. كانت لهفتى فى التحدث إليه واضحة للعيان ، توحى فعلًا إلى الناظر إلينا أننا لم نر بعضنا ولم نلتق منذ الأسبوع الماضى .

وبينما نحن فى انسجام تام ، وقد أخذ الحديث منا كل اهتمامنا ..

إذا بصوت المدرسة ، التى تقف على مدخل صالة الزيارة ينادى جهوريًا ..

أمل .. أمل ..

فلم ألق بالًا إليها .. إننى معتادة سماع مثل هذا النداء .. إن اسمى يطلق على فتيات أخريات ، ولكن يضاف إلى أسمائهن أسماء أخرى .. فقط أنا التى أحمل اسمًا منفردًا .. أمل .. بدون إضافة اسم آخر إليه .. ومع ذلك لم أنتبه إلى أنى المقصودة .

ولكن المدرسة عادت مرة أخرى ، وهى تشير بيدها ناحيتى .. أمل .. أمل ..

ـ التفت ، دهشة .. أنا ..؟..

ـ نعم .. أنت ..

قلت قبل أن أتحرك من مكانى أسأله :

ـ أنا ..؟ ..

ـ إنها أنت .. اذهبى .. اذهبى .

انتبهت إلى أنى سأغادره ، فقلت .. كلّا .. لا أريد أن أذهب .. لا أحد عندى يزورنى ..

ـ اذهبى .. اذهبى ..

قالها (رقم واحد) بانفعال شديد ..

نهضت متثاقلة .. واتجهت ناحية باب الزيارة ..

وبعد عودتى إليه قال .. ها قد وجدت لك أهلًا .. إنى شديد الانقباض ، لاحتمال إخراجك من الدار .

★ ★ ★

أما عن تلك الأيام ، فقد قالت (سلمى) :

استمرت زيارتى لمديرة الدار . وفى كل مرة أنفحها بالمبلغ

المجزى ، تحت بند مصاريف (رقم واحد) الأسبوعية .. حتى توطدت الصداقة بيننا تمامًا .

أخبرتنى المديرة أن (رقم واحد) أى (على) كما تحبين أن تسميه فى منتهى الأدب ولياقة التصرف .. إنه مطيع مجتهد .. وشكرتنى على شدة عنايتى به فى الفترة التى كان بها عندى .. وأشارت إلى أنه فقط حزين دومًا ، لولا الفتاة (أمل) التى يلتقى بها كل يوم زيارة مع مجموع نزلاء الدار فتساءلت : أية (أمل) ..؟..

فقالت المديرة :

إنها فتاة لقيطة ، أودعت لدينا وعمرها يومان من أحد المارة الذى التقطها من قارعة الطريق ، على أن يعود إلينا فى اليوم التالى ولم يعد ، كان ذلك منذ أربعة عشر عامًا ونيف ، وهى أيضًا تعسة، لأن أحدًا لا يسأل عنها .

التقطت طرف الخيط ، وسرعان ما اعتملت الفكرة ، وقررت فى نفسى أمرًا ، فقلت بأسى مسكينة الفتاة .. هل هى حزينة أيضًا ؟.

كل الحزن .. كل يوم زيارة تنهمر بدموعها مدرارًا .. لم ينقطع سيل دمعها ، إلا بعدما التقت بـ(على) .. فأصبح كل منهما يعزى صاحبه .. نحن نسمح لهما باللهو البرىء أمام أعيننا .. نخشى عليهما ، إنها مسئولية كبيرة ملقاة على عاتقنا .

فأمنت على حديثها .

دون شك .. الله يكون معكم .. هل هما الاثنان فقط اللذان لا يزورهما أحد ؟

كلا بالطبع هناك الكثير .. ولكن منهم من لا يهتم .. ويتم تأقلمه مع المحيط الذى هو فيه .. ومنهم ذو إحساس مرهف لا يطيق

الإهمال ، وهذه الفتاة من هؤلاء .. إنها مطيعة أيضًا ، ولبقة ولكنها دومًا حزينة ، كأن شيئًا ما ينقصها .

فرددت .. ينقصها شيء ما ..؟.. طبعًا ينقصها الشئ الكثير .. ينقصها الوالدان .. يا للطفلة المسكينة .. هل هناك أوامر لمنع الزيارة عنها ..؟..

ـ كلا .. كلا .. لماذا ؟.

ـ قد أسرى عنها لو زرتها .. وجلبت لها معى بعض الهدايا ..

ـ إنك رقيقة المشاعر ياسيدتى .. إنه لم يصادفنى فى حياتى العملية على مدى خمسة وعشرين عامًا .. من اهتم كل هذا الاهتمام بأى نزيل .. حتى خيل إلى أحيانًا ، أن كل الناس مجبولون على القسوة ، جفاة المشاعر ، لو لم أرك .. إنك رقيقة حقًا .. طبعًا باستطاعتك زيارة الطفلة متى شئت .

لم تقل المديرة إن الزيارات مقصورة على ذوى النزلاء ، أو من معهم إذن بذلك .. لقد فهمت حتمًا أنى أروم الاقتراب من أخبار (رقم واحد) أكثر فأكثر ، فسهلت لى المهمة ، اعترافًا منها ـ بينها وبين نفسها ـ بفضل النفحات الأسبوعية ، دون أن تخسر شيئًا .. ودون أن تتحمل أية مسئولية تجاه (عادل) .

أخرجت من حقيبة يدى مبلغًا آخر .. وقلت :

هذه المصاريف الأسبوعية للطفلة المسكينة .. يجب أن يهتم بها أحد .

يا لرقة قلبك ياسيدتى .. إنك تستطيعين إخراجها من هذا المكان . إذا تقدمت بطلب إلى المسئولين تتعهدين فيه بحسن رعايتها .

رأتها المديرة فرصة سانحة للتخلص من عبء إعالة الفتاة التى لا أحد يدفع عنها المصاريف .

ولكنى قلت :

ليس الآن .. ليس الآن .. لتبق مع (رقم واحد) تسليه .. لن أحرمه من صحبتها ، طالما أنه يجد فيها العزاء .

ثم ألقيت التحية ، وانصرفت على موعد بلقاء المديرة أولا ، ثم زيارة الفتاة (أمل) . فى الأسبوع القادم .

وفى الأسبوع التالى ، قالت لى المديرة :

هل ترغبين ياسيدتى فى استدعاء الفتاة إليك هنا ؟

فقلت .. لا ..لا سأذهب من الباب المخصص للزيارة ، مثلها مثل غيرها .. ولكنى حضرت إليك كى أدفع المصاريف الأسبوعية لكل من الصبى والفتاة .

وكنت أهدف إلى أن أكون بمفردى مع الفتاة بعيدًا عن الأنظار كى أتحدث معها بحرية بشأن (رقم واحد) ، بما أريد .

فهمت المديرة هذا أيضًا .. وقالت .. كما تشائين ..

هناك فى وسط صالة الزيارة ، وقفت أنت تنظرين إلى جميع الاتجاهات ، تبحثين ، ولا تدرين من الذى طلبك ، ونوديت من أجله . وفى نفس الوقت كنت أنا ألقى بنظرى فى أنحاء الغرفة .. ولا أدرى أين هى الفتاة (أمل) من بين ذلك الحشد من الفتيات والصبية .. وبعد أن طال بى الانتظار . هتفت بالمدرسة المنادية .. أرجوك نادى الفتاة (أمل) .. إنها لم تأت .

ـ بل أنت .. لقد رأيتها وهى تدخل الصالة .

ـ أين هى إذن ؟..

ـ ألا تعرفينها ؟..

وفى هذه اللحظة ، أقبلت أنت علىّ ، قبل أن تجاب المدرسة على تساؤلها .. اقتربت منى قائلة مرحبًا سيدتى .. أنا أمل .. نعم أنكر .. أمسكتْ بى كما لو كنت سأتبخر من أمامها ،

وقبلتنى بعنف ، وجرتنى إلى الجلوس بجوارها على المقعد الخشبى المستطيل ، غير المكسو ، كانت تمسك بيدى ، وتمسح شعرى باليد الأخرى بحنو ظاهر .. لأول مرة أعامل به .. قالت لى :

كيف أنت يا (أمل) .. إننى قررت أن أزورك كل أسبوع .. وأحضر لك ما تشائين من الحاجيات .

فرددت أنا بجفاء .

كلا .. كلا .. لست بحاجة إلى زيارة من أحد .. أنا بخير ، ولا أريد شيئًا ..

بهرت (سلمى) ، فقالت .. سمعت أنك حزينة لأن أحدًا لا يزورك ؟

فرددت بعصبية .. كان هذا سابقًا .. أما الآن فلا أرغب فى زيارة أحد .

ـ حسنًا دعينى أسألك .. أترين (على) .. كيف هو ؟..

انتبهت دفعة واحدة .. وهببت واقفة قائلة بانفعال شديد مشيرة نحوها بأصبعى .

أأنت .. أم (رقم واحد) .؟.. لماذا لم تزوريه ؟.. لماذا لا تطلبينه الآن ؟.. لماذا هذه القسوة ياسيدتى ؟.. إنه يبكى دائمًا كلما تذكرك ، وكثيرًا ما يفعل .. أتزورينني أنا وتتركينه هو ؟ .. دعينى أناديه .. إنه هناك فى الحديقة ينتظرنى ..

وتحركت كى أناديه فشددت (سلمى) من قبضتها على كفى ، وجرتنى إلى أسفل كى تعيدنى إلى الجلوس .

ـ سوف تمنعك المدرسة الواقفة فى الباب من مناداته ، وسوف تمنعه من الدخول لو جاء .. أصغى إلىّ يا (أمل) .. أنا لم أمتنع عن زيارته برضاى ، لذلك تعللت بزيارتك ، كى تنقلى له كل ما أريد قوله له .

وجلست قربها .. وقد لانت قسمات وجهى ، بعدما فهمت . وقلت :

حسنًا .. تستطيعين زيارتى كل أسبوع .. أرجو قبول اعتذارى .. إنى لم أعرفك .. حسنًا .. ولو أن هذا يضايقنى ، لأننى سأحرم من الجلوس إليه هناك .. إنهم يمنعوننا من اللقاء كل يوم .. فقط فى يوم الزيارة الحزين ، كما كنت أدعوه سابقًا .. أما الآن فأدعوه يوم الزيارة السعيد ، لأننى أراه فيه .. فقط يوم الزيارة هو اليوم الوحيد المسموح به للقاء مجموع النزلاء .. آه لا يهم .. المهم أنه يسمع منك ما تريدين قوله .. سوف أنقل لك ما يريد هو أيضًا .. هذا سيسعده كثيرًا .. كثيرًا .

قلت كل ما جاش به خاطرى دفعة واحدة .. ثم بقيت صامتة ، أتأمل بعجب ، وانفعال ، وجه (سلمى) وهندامها مبهورة ببراعة جمالها وشدة أناقتها .. ليت لى مالها من جمال .. لكم هى جميلة يا إلهى .. إننى بالقياس إليها أبدو باهتة دون ريب .

فانتهزت (سلمى) فرصة هدوئى وقالت :

أخبرى (على) .. أننى لم ولن أنساه .. وأننى أعمل جاهدة لإخراجه من هنا .. قريبًا ، سوف أستطيع إقناع والده برأيى إنشاء الله .. فقط ليبعد عنه اليأس .. أرجوك يا (أمل) .. إنك صغيرة مثله ، بل أظنك أصغر منه .. ولكن كونك فتاة لك قلب ملىء بالحنان .. أرجو أن تنتبهى إلى (على) .. إنه شاب طيب ، ولكن له ظروف تعسة .

ـ لا داعى .. إلى توصيتى .. إننى أحبه ..

ـ تحبينه ..؟..

قالت العبارة الأخيرة (سلمى) بدهشة كبيرة لجرأتى ، التى لم أفهم مبررًا لها آنذاك .. فرددت هو أيضًا يحبنى .. لو لم يحب

بعضنا البعض لقضى علينا من الكمد . لكن كل المدرسات والمديرة يمنعوننى من زيارته .. لا أعرف لماذا هم قساة هكذا .. وبما أنك لست قاسية مثلهم ، سأخبرك سرًا .. وأرجو منك كتمانه .. إننى أزوره كل ليلة عندما ينام الجميع ..

لاحظت الدهشة تلم بـ(سلمى) أكثر .. إننى وأنا الفتاة المحرومة من أى اتصال اجتماعى ، أو ثقافى غير المعارف الهزيلة التى تلقننا إياها الدار ، لا أعرف عن العادات والتقاليد السائدة خارج المبنى شيئًا .. ورأى المجتمع حول مثل هذه الأمور ، إننى أتكلم ببراءة تامة ، دون شعور بالذنب ، أو حتى بالخجل .

ـ مؤكد ، أنها لم تتلق تربية دينية أو اجتماعية جيدة .

سمعتها تقول ذلك ، كأنها تحدث نفسها . ثم قالت بصوت مسموع :

احذرى يا فتاتى .. احذرا أنتما الاثنان .. إياكما أن تخطئا ..

ـ نخطئ ؟.. لم نسرق شيئًا ، ولم نكذب ..

كنت أعرف هذين المفهومين جيدًا (السرقة والكذب) ، وما عداهما فلم أكن أعرف أن هناك شيئًا مكروهًا .. أو محرمًا ..

فسمعتها تقول .

آه .. ماذا أقول فى مثل هذا الوقت الضيق .. حسنًا .. حسنًا .. انتبها لنفسيكما ..

وذكرت لى (سلمى) فيما بعد ، أنها فكرت فى منعى من زيارة (على) ليلا ، وذلك بتبليغ المديرة ، خوفًا من الكارثة التى ستحل بنا ونحن الصغيرين الغرين .. ولكنها عادت فخشيت علينا من قسوة المعاملة .. والأهم من كل ذلك فضلت أن تفرح الصبى بصحبتى ، على حساب ما تملك من مبادئ تعلمتها من أمها وأبيها العربيين ، وعرفتها جيدًا من المجتمع العربى الذى عاشت فيه ثمانى سنوات متواصلة ..

ولكنها قررت أن تصمت .. وقد صمتت .

قبل أن يدق الجرس معلنًا انتهاء فترة الزيارة ، قبلتنى مجددًا قائلة لى .. ووجهها ولسان حالها يقولان أيضًا إنها فرحة لفرح (على) ، حيث لن يشعر بالتعاسة وقد عثر على رفيقة له .

عودى إلى (على) .. قبل انتهاء موعد الزيارة ، كى تخبريه بكل شىء قلته لك ..

وقبل أن أبتعد صاحت بى :

انتبها .. إياكما والخطيئة ..

وكأنها برأت ساحة ضميرها بذلك التنبيه ، الذى لا يقدم ولا يؤخر .

وقد قالت لى (سلمى) فيما بعد إن مشاعر الغبطة بعد تلك الزيارة ظلت ملازمة لها طيلة الأسبوع حتى هل وقت الزيارة التالية .

زايل (رقم واحد) الشعور الدائم بالكآبة .. شعر أنه غير مهمل ولا نكرة ، فهناك من يهتم به ، ويسأل عنه إلى درجة أنه أخذ ينسى أحيانًا مصيرة المظلم ، ووضعه الشاذ .. بسبب صحبتى أولًا .. وتكرار زيارات (سلمى) لى ثانيًا ، على مدى عدد من الأشهر المتواصلة ، كل شهر أربع مرات ، كانت مواظبة تمامًا على زيارتى لا يمنعها جلّ المشاغل والأعمال .. وكانت تلك الزيارات تنعش روحه ، وتعطيه نفحة من الرجاء ، بما أنقله إليه من وعود أمه ومحبتها له ، وهداياها له ولى .

وكان (رقم واحد) قد أتم عمل الخميلة ، وتوالت لقاءاتنا السرية فيها بعيدًا عن الأعين ، برغم الخطورة التى تكتنف الانتقال من غرفنا إلى الحديقة البعيدة .. إلا أن ذلك كان أنسب وضع للإفلات من الرقابة .

فى إحدى الليالى المظلمة ، التى تزيدها الغيوم المتراكمة حلكة فوق حلكة ، وكانت خطوات إحدى العاملات ممن يقطن الدار تنتقل بحذر خشية الاصطدام بشىء .. كانت فى طريقها لإيقاظ طبيب الدار ، إلى حيث يسعف زميلة لها تشتعل بالحمى .. عندما مس مؤخرة رأسها من الخلف أطراف أنامل بشرية ، خيل إليها لحظتها أنها باردة كالثلج ، فالتفتت إلى الخلف على عجل ، لكى ترى شبحًا مسربلًا بالسواد .. فصرخت صرخة مدوية فى هدأة الليل الساكن ، وخرت مغشيًا عليها .

لم يكن ذلك الشبح سواى أنا ، لقد خرجت متسللة بحذر متجهة نحو الحديقة ، مادة ذراعىّ إلى الأمام ، كالسائر فى نومه ، كى لا اصطدم بشىء ، وكنت أضع على رأسى غطاء خفيفًا للفراش داكن اللون ، وحالما رأيت العاملة تحت قدمى ، فررت مسرعة ، عائدة إلى غرفتى ، أرتجف فزعًا من انكشاف أمرى .

وفى نفس اللحظة ، رأى (رقم واحد) ، وسمع الضوضاء من بعيد ، وهو قابع فى الخميلة ، فتسلل من خلف المبنى إلى نافذته متسلقًا الحبل .. ولكنه ظل قلقًا علىّ ، ولم يطمئن إلا فى الليلة التالية ، عندما تسللت إلى غرفته ، بعد أن بحثت عنه فى الخميلة فلم أجده .

وشاع بين كل العاملين فى الدار ، أن شبحًا ما يجوب فيها أثناء الليل ، وبات الجميع يخشون الخروج ليلًا إلا جماعات ، أو بصحبة أحد .. مستخدمين مصابيح يدوية لإنارة الطريق .. وكانت الساحة تطفئ أنوارها ليلًا ، توفيرًا لمصروفات الكهرباء بأمر من صاحبة الدار .

وضحكنا معًا طويلًا من هذه الفكرة .. ووجدنا أنها فرصة أكثر لإعطائنا الأمان فى تنقلاتنا .

أيها الشبح .. قالها (رقم واحد) ، الذى اعتاد أن يمزح معى كلما انفرد بى .

رددت متصنعة الغضب :

أخشى أن تنسى اسمى .. إن لم تكف عن هذا سوف أدعوك به أنا أيضًا .. أليس كلانا نسلك الطريق الليلى ملتحفين الأغطية ؟

ضحك .. وقال .. غدًا .. ستأتى ماما لزيارتك .. أريد منك أن تبذلى جهدًا إضافيًا لحثها على اتخاذ إجراء سريع لإخراجى من هنا .

أحسست بحزن مباغت ، فرددت مظهرة القلق .. أتفكر فى فراقى ؟ هل سأبقى وحدى ها هنا ؟

لا تخشى شيئًا ، حتمًا ستجد أمى طريقة ما لإخراجك .. إنها لن تتخلى عنك أيضًا .. إنها رحيمة جدًا .. وأمرك أهون بكثير من أمرى .. إننى محاصر ، وسوف أساق إلى المسلخ فى أية لحظة ، لو حدث لأبى أى مكروه .. ولكن عندما أكون خارج هذا المبنى اللعين سيكون فى ميسورى التصرف عندئذ ، وكذلك تستطيع أمى .

فزعت قائلة كلا .. كلا .. لا تتحدث هكذا .. أرجوك ، إنك تتعسنى ، وتفزعنى .. سأطلب منها غدًا إخراجك .. سأتوسل إليها .. لا يهمنى أمر نفسى .. المهم أنت .. أنت لابد أن تخرج من هنا .

قلت له هذا ، وأنا أشعر برعب لا نظير له ، منصورة إياه ، وقد قطعت يده ، أو قدمه .. فالتصقت به . وأخذت أربت على خده بحنان بالغ ، وهو يقرب خده منى مغمض العينين ، فى طلب متزايد للحنان .

فى صباح اليوم التالى ، كنت متحفزة للقاء (سلمى) ، وأنا جالسة على الأرض المعشوشبة ، بجواره ، وعلى بعد قليل منه كعادتنا . كنت شاردة الفكر .. فيما يجب أن أقول لـ(سلمى) .

أما (رقم واحد) ، فيبدو أنه لاحظ شرودى ، فأخذ ينظر إلىّ مستغربًا صمتى الطويل .. وأخيرًا قال : لقد قاربت فترة الزيارة على الانتهاء .. ولم تحضر أمى ..

فانتبهت .. حقًا مضى وقت طويل على بدء فترة الزيارة .. ها هى الشمس تقترب من مجلسنا . إنها كلما اقتربت هكذا يدق جرس انتهاء فترة الزيارة .. معظمنا يحسب الوقت على انكسار الظل ، لعدم حملنا للساعات ..

هل نودى علىّ ، ولم أسمع ؟.. دعنى أذهب لأسأل المدرسة المنادية .. وقبل أن أتم عبارتى ، دق الجرس فعلًا معلنًا انتهاء فترة الزيارة .

فنظر الفتى حوله مرعوبًا .. متوقعًا نداءً أخيرًا .. أمل .. ولكن لا منادٍ .. فقال :

ما معنى هذا ؟ . ألن تحضر أمى .؟.. أيكون حدث لها مكروه ؟.

فقلت أطمئنه ، وأنا أشد قلقًا منه .. كلا .. قد تكون شغلت بشىء ما .

فقال بانفعال وخوف : لا يمكن لأى مشاغل أن تمنعها عنى .. أنا أعرفها .

رددت : قد تكون منعت من زيارتى أيضًا ..

هم الفتى بالكلام .. ولكنه أمسك لسانه ، قبل أن تفلت منه كلمة تدل على خوفه على صحة أبيه .

فقال وهو مصفر الوجه : ربما .. ربما ..

★ ★ ★

وفى اليوم التالى مباشرة ، دخلت المديرة الفصل الدراسى ، الذى كنت به ، بنفسها .. ودون أن تبعث أحدًا من قبلها كخادمة مثلًا ، كما كانت تفعل فى كل مرة .

فتوقفت المدرسة عن الشرح للدرس ، واتجهت إلى المديرة .. ولكن هذه ، ودون أن تلتفت إلى حركة المدرسة .. أشارت إلىّ بيدها ، وكنت جالسة قرب النافذة المطلة على الحديقة الجانبية للدار .. أنظر من خلالها لعلّى ألمح (رقم واحد) ، مارًا ولو من بعيد .. رأيت إشارة المديرة لى ، فنهضت من مجلسى متجهة إليها .

أمسكت المديرة بكتفى ، ودفعتنى أمامها ، والمدرسة دهشة من تصرف المديرة الغريب ، حيث أنه ليس من اللياقة ، أن تقطع علينا الدرس هكذا ، ودون اعتذار .. ولكن المدرسة هزت كتفيها بعد تجاوز المديرة لها ، وعادت إلى الشرح ، كما لو لم يحدث شىء .

ساقتنى المديرة أمامها .. كنت خائفة أرتجف هلعًا ، ربما يكون أحد وشى بالعلاقة التى بينى وبين (رقم واحد) .

وبعد أن صرنا خارج الفصل ، قربت المديرة فمها من أذنى قائلة :

مدام (سلمى) عندى فى المكتب .. أتت لتزورك ، إياك أن تذكرى هذه الزيارة الخاصة لأحد ، أيًا كان .. أفهمت ؟.. وإلا حرمتك من رؤيتها إلى الأبد .. أفهمت ؟. ممنوع الزيارات فى الأيام العادية .. حتى لو سئلت ، عن سبب استدعائك ، لا تذكرى شيئًا ..

أشرت بالإيجاب بإيمائه من رأسى .. وقلبى يجب فرحًا .. سوف أطمئن (رقم واحد) . الليلة .

لم يسبق لى دخول غرفة مكتب المديرة ، على مدى الأربعة عشر عامًا الماضية .. قلت لنفسى ، وأنا أسير خلف المديرة بعد أن تخلت عن كتفى .. ترى كيف حصل ذلك ، إن (رقم واحد) يعرف كل شىء فى هذه الغرفة ، لكثرة ما مثل بها أمام المديرة ،

وضحكت فى نفسى ، ياله من طفل مشاكس ، أما الآن فهو لا يدخلها .. ولكن ترى هل يدخلها غير المذنبين ؟.. كم هى مكروهة هذه الغرفة !!

وعندما دخلتها فى ذلك اليوم للمرة الأولى ، لم أنتبه إلى ما تحويه من أثاث ، حيث لم أر سوى (سلمى) ، تجلس على أحد المقاعد الجلدية ، بتوتر غريب لم أعهده فيها .

أخذتنى من يدى إلى ركن قصى من الغرفة ، بعيدًا عن مسمع المديرة .. وفى الطريق إليه قالت بصوت مسموع .. معذرة يا (أمل) .. لم أستطع زيارتك أمس لمرضى .. وأظنك تشاهدين آثاره علىّ .

وكان وجه (سلمى) شديد الاصفرار ، خاليًا من أى نوع من أنواع الزينة .. ثم واصلت حديثها همسًا بعد أن وصلنا إلى الركن القصى .. ثم قبلتنى .. وودعتنى للانصراف .

وقبل أن أخطو إلى الخارج رأيتها تلتفت إلى المديرة قائلة لها :

شكرًا جزيلًا ياسيدتى ، فى الحقيقة خشيت أن يقلق الصبيان لعدم زيارتى لهما يوم أمس .

وفتحت حقيبة يدها مناولة المديرة مبلغًا أكبر من المبالغ الأسبوعية التى تدفعها عادة ..

وقالت مبررة ذلك :

لم أجلب لهما هدايا هذه المرة .. خذى هذا المبلغ الزهيد ، ربما يحتاجان إلى شىء ..

فهمت المديرة ، أن هذه العبارة فقط لتمرير المبلغ .. فقالت بصوت ممتن :

هذا كرم منك ياسيدتى ، كرم زائد ..

فى اليوم الثالث على التوالى ، دخل مكتب الناظرة .. ساع لأحد المستشفيات الخاصة وبعد أن عرفها بهويته . قال :

إدارة المستشفى تطلب نزيلًا عندكم يدعى (رقم واحد) .. وهناك فى الخارج بعض عمال المستشفى ، وعربة إسعاف ، ينتظرونني ، فأرجو الإذن منك باستدعاء العمال لمعاونتى لأخذ النزيل .. ، وهذا الخطاب الموجه إليكم ، يوضح الأمر .. وفتحت المديرة الخطاب ، وكان موجهًا من إدارة المستشفى ، وكان ينص على الآتى :

ـ مديرة دار الرعاية ..... المحترمة

تحية طيبة

يرجى تسليم النزيل المودع لدى إدارتكم تحت رقم (واحد) ، بناء على المستلزمات الداعية لصحة السيد (عادل) ...

مدير المستشفى .....

ملاحظة/مرفق صورة ضوئية من التوكيل المعطى لنا لإحضار (رقم واحد) فى أى وقت نرى فيه خطورة على صحة السيد (عادل سعد القطاف) .

فقالت المديرة باكية .. حسنًا .. استدع رجالك ..

ضغطت الجرس ، تستدعى إحدى الخادمات .. وحالما حضرت ، قالت لها المديرة ..

استدعى (رقم واحد) .. ثم استوقفتها ، لتلقى نظرة على الجدول ، كى ترى بأى فصل يتواجد . ثم قالت .. ستجدينه فى صالة الرسم .. اذهبى هناك ، وأتى به ..

ذهبت الخادمة ، لتعود بعد دقائق معلنة أنها لم تجد الصبى فى صالة الرسم ..

فنهضت المديرة ، من أمام مكتبها غضبًا تردد .

كيف ؟.. إنه الآن يجب أن يكون فى صالة الرسم .. اذهبى إلى غرفته قد يكون مريضًا ..

وذهبت المديرة بنفسها إلى صالة الرسم ، لتعنف المدرسة ، على إهمالها ، حيث لم تبلغها عن غياب الصبى عن الفصل .

وبعد ساعة عادت المديرة ترغى ، وتزبد ، وجمع من بعض المدرسات والعاملات خلفها ، مذهولات .. لقد بحثن فى كل أنحاء الدار ، ولم يعثرن على أثر لـ (رقم واحد) .

تذكرتنى المديرة فجأة .. ودون أن تطلب من أحد مناداتى هرولت خارج غرفة مكتبها تردد هذه اللعينة تعرف أين هو مختبئ .. هذه اللعينة ..

ونسيت أن تنظر إلى الجدول لترى مكانى .. فعادت إلى غرفة المكتب مهرولة . وصاحت بمجموع المدرسات والخدم .. انتشروا .. انتشروا .. ابحثو عنه ..

ومرة أخرى ، خرجت من غرفتها مهرولة .. تردد .. الويل لها منى .. الويل لها منى .. إن لم تخبرنى أين أجده .

ذلك ما روته المشرفة الاجتماعية عن ذلك اليوم المشئوم .

★ ★ ★

كنت أجلس فى الفصل شاردة اللب .. إن أحداث يوم أمس وليلة البارحة ، استوليا على كل ذرّة فى ذهنى ، فلم أسمع حرفًا واحدًا مما كانت المدرسة تردده .

ترى هل نجحا .. قالت إنها ستقف له بالسيارة تحت السور خلف مبنى صالة الزيارة .. إنه مكان جيد وبعيد ، وغير مطروق .. أخشى أن تكون أمه تاهت عن المكان .. ولكنها قالت ، إنها سوف تتفحصه ، بعد خروجها فى وضح النهار ، بعد مقابلتها لى يوم أمس .. اطمأننت نوعًا ما .. عدت أستعرض فى ذهنى ، واقعة ليلة البارحة .. وكيف ساعدته على تسلق السور المرتفع ، بأن وقفت بنصف قامتى ، وجعلته يرتقى أكتافى ، وقد أمسك بحديد السور ..

ثم .. ثم نهضت به .. وركبى ترتجف وتنوء تحت حملى الثقيل .. إنى الآن أحس ألمًا معضًا فى ظهرى ، وأكتافى .. لا يهم .. لا يهم .. إننى لم أستطع جذب الحبل من السور ، كما أوصانى قبل أن يتسلق ظهرى . كيف يكون فى ميسورى فعل ذلك ؟

والحبل يتدلى على الجهة الأخرى ، كيف خيل إليه أن ذلك فى ميسورى .. لقد نسى حتمًا أن يلقى به إلى الجهة الأخرى ، وهو فى عجلة من أمره .. سيعرفون أنه هرب .. ليكن ، هو الآن بعيد عن متناول أيديهم القذرة .. إنه آمن .. ترى أين هو الآن ؟..

وقبل أن أتم استرسالى فى التفكير .. دخلت المديرة الفصل كالعاصفة ، وسحبتنى إلى الخارج .. وهى تهدر همسًا : تعالى .. تعالى .. إذا لم تخبرينى أين أجد (رقم واحد) .. أين هو مختبئ الآن ، سوف أسحقك ، وأحرمك من كل شىء .. أين هو .. أين هو ؟..

فزعت ، وأقسمت كاذبة .. أقسم لك .. أنى لم أره .. منذ يوم الزيارة الماضى .. لا علم لى به ، قد يكون هرب ..

إذن أنت تعرفين أنه هرب .. أين هرب ؟

وأمسكت بأذنى تعصرها عصرًا .. إن لم تتكلمى ، فسوف أهشم لك رأسك ..

ويبدو أن المديرة تذكرت فجأة زيارة (سلمى) الخاصة لى .. فهدرت .. ماذا قالت لك أم الفتى .. يوم أمس ؟ تكلمى .. تلكلمى .. لقد رأيتها تهمس إليك ..

ثم ألانت لهجتها .. وتوعدت .. إياك والبوح لأحد عن زيارتها الخاصة لك يوم أمس .. إنها زيارة خاصة ، من الممنوع إجراؤها .. اسمعت ؟.. قد يأتى أناس غرباء ويسألونك .. إياك والبوح بها . أفهمت ؟

فرددت لن أقول شيئًا .. لن أتحدث لأحد ..

ولكن قولى لى أنا .. ماذا قالت لك (سلمى) يوم أمس ..؟..

فقلت وأنا أعصر وجهى تألما من قبضة المديرة على أذنى : لم تقل شيئًا بخصوصه .. اقسم لك .. ولكنى أظنه هرب ..

أبدت المديرة ارتياحًا لتكتمى .. ولكنها تابعت .. أين ..؟..

حركت رأسى فى محاولة لإفلات أذنى من كماشة أصابعها .. أقسم لك .. إنى لا أعرف إلى أين .. ولكن أعرف المكان الذى قفز منه خارج السور .. لقد رأيت صباح اليوم حبلًا يتدلى من السور .. ونسيت وأنا فى غمرة ألمى ، وربكتى ، أن الحبل من الجهة غير المرئية من المبنى الداخلى للسور .

أى سور ؟.. تكلمى ..

هناك خلف مبنى صالة الزيارات ..

فأفلتت المديرة أذنى ، التى غار الدم منها ، لأننى شعرت بخدر شديد يلم بها .. ثم شعرت بعد زوال الخدر باشتعال الحرارة ..

وحذرتنى ..

إياك والبوح بما تعرفين لأى إنسان .. خاصة الرجال الغرباء .. لن أدع أحدًا يعرف أنك متورطة بعلاقة مع (رقم واحد) .. وإن حدث واستدعيت لأى شخص فالزمى الصمت .. الصمت .. أفهمت ؟.

وابتعدتْ عنها راكضة إلى غرفتى .. وأنا أردد .. نعم .. نعم .. دخلت الغرفة ، أبكى فزعًا ، وألمًا فى أكتافى وظهرى ، وأننى ، وسقطت راقدة فى فراشى أستعر بالحمى لمدة شهر كامل .

★ ★ ★

عندما زارتنى (سلمى) فى اليوم السابق على يوم هروب (رقم واحد) من الدار . أخبرتنى بوجوب هروب (على) ، وإلا تعرضت حياته للخطر ، ودون أن تزيد على ذلك ، كانت عبارتها

هذه كافية لاستثارتى ، لمعاونة (على) على الهروب من الدار .. واتفقنا نحن الاثنتان على أن يكون الهرب بالقفز من السور ، لاستحالة خروجه من أى منفذ ، حيث لا توجد أية منافذ فى السور عدا البابين : الباب الرئيسى ، وباب الزيارات ، المشددة عليهما الحراسة .. ثم طلبت (سلمى) منى أن أقترح مكانًا مناسبًا لانتظار (رقم واحد) فى عربتها تحت السور فى نفس الليلة .. كنت أعتبر فى ذلك الموقف من الأذكياء ، إذ سرعان ما قدحت فى ذهنى الفكرة .

فدللتها ـ وصفًا ـ على مكان فى السور ، الذى يجب أن يتسلقه (رقم واحد) ، وينزل منه بوساطة الحبل إلى الطريق .

وفى نفس الليلة أخبرت (على) بالمكان الذى يجب أن يقفز منه خارج المبنى ، وعاد إلى غرفته لاستحضار الحبل .. واضطررنا أنا وهو إلى أن نجازف بعبور الساحة الأمامية مرتين لأنه لم يكن لديه خيار غير ذلك ، بعد أن فك الحبل من على النافذة .

وعند الوصول إلى السور .. حيث لا ينفع الحبل فى حالة التسلق لأننا لا نستطيع ربطه فى الأعلى ، ونحن لا نزال فى الأسفل .. عندئذ اقترحت عليه أن يصعد على أكتافى .. ومن ثم ربط الحبل فى الحديد المسنن فى الأعالى .. ومن ثم النزول عليه باحتراس ..

جنبنى المرض والحمى ، أن أتعرض إلى أية مساءلة ، أو استفسار .. كذلك حاولت المديرة أن تسكت أفواه المدرسات ، ممن حاولن الزج بى فى موضوع التحقيق ، وحذرتهن من الخوض فى العلاقة التى بينى وبين (رقم واحد) ، أمام هيئة التحقيق ، حفاظًا على سمعة المدرسة .. قالت لهن :

إنها تستبعد أن يكون للفتاة علم بذلك الموضوع .. وحذرتهن من ذكر الزيارات الأسبوعية التى تقوم بها (سلمى) لى .. كل هذا متعللة بالحفاظ على سمعة الدار ، ونزلاء الدار .

ومرّ شهر ، وبضعة من الأيام ، وأنا راقدة أهذى من الحمى .. حتى استطعت أخيرًا أن أتماسك ، وأقدر على النهوض .

خرجت من غرفتى إلى ساحة الدار ، أهتز ضعفًا ، وأتلفت يمينًا وشمالًا ، أتسقط أية أخبار عن (رقم واحد) .. وعندما أعيانى الأمر .. ولم أجد من يجيب عن تساؤلاتى .. اتجهت إلى غرفة المديرة فى رحلة مجازفة .. ولكن ما بداخلى من لهفة على معرفة أى شىء عن (رقم واحد) أقوى من كل خوف ، أو تردد ، أحمى به نفسى .. ومع ذلك فالمديرة أستأمنتنى على سر .. حتمًا ستساعدنى .. قلت لنفسى ذلك أطمئنها .. ودخلت أخطو فى ضعف ووجل ، حتى انتصبت أمام مكتب المديرة . التى رفعت رأسها فى تعجب قائلة لى :

كيف غادرت سريرك ؟.. إنك لازلت مريضة .. لا لزوم للذهاب إلى الفصل الآن .. عودى إلى الفراش .. هيا .. لا تغادريه .. سوف يقدم لك طعامك فى السرير كالمعتاد .. حتى آذن لك أنا .. ..

فقلت دون أن أنتبه إلى كل الذى قيل .. أين (رقم واحد) .. ؟..

فحدجتنى المديرة بنظرة صارمة ، متعجبة من جرأتى .. ولكن قبل أن تنطق بالرد القاسى ، الوارد على لسانها .. رأت الدموع تنسكب مدرارًا .. فابتلعت عبارتها التى أوشكت أن تنطلق بها ، وأجابت على تساؤلى . متجاهلة حالتى .. لست أدرى .. لماذا تسألين ..؟..

فقلت بتوسل .. أرجوك سيدتى .. أخبرينى ، هل اقتطعوا جزءًا من جسده ..؟..

فهمت المديرة سبب فزعى ، وحزنى فقالت :

لقد مات السيد (عادل) أبو (رقم واحد) من خمسة عشر يومًا مضت ..

فألححت .. (رقم واحد) .. هل اقتطع جزء من جسده ..؟..

فقالت المديرة بعصبية .. ألا تفهمين .. قلت لك إن السيد (عادل) مات ..

وقبل أن تتم عبارتها ، كنت ساقطة مغشيًا علىّ ..

أفقت مرة أخرى لأجد نفسى فى السرير ، وطبيب الدار ، والبعض من المشرفات يتحلقن حولى . ها هى فتحت عينيها .

قالت هذه العبارة إحداهن .. فترك الطبيب يدى ، وجلس بالقرب منى ينقل سماعته من جهة لجهة على صدرى ، فقلت موجهة سؤالى للجميع :

كيف مات .. هل اقتطع جزء من جسده ..؟..

ظن الجميع أننى أهذى ، فلم يجب أحد عن سؤالى .. أخذت أردد سؤالى بقدر ما أستطيع من قوة واهنة .. متوسلة .. مستعطفة .. ولا أحد يجيب عن تساؤلى بغير كلمات ، ليس لها معنى مثل قولهم . اهدئى .. نامى ..

حتى تعبت تمامًا .. فألقيت برأسى على الوسادة ، والدموع تنحدر من مآقىّ .

بعد أن أنهى الطبيب مهمته ، طلبت المديرة من الباقين تركها معى . وعندما أخلى المكان ، قالت همسًا .

إن (رقم واحد) قد نجا .. نعم نجا .. لم يجدوه .. لم يقتطع أى جزء من جسده .. لا داعى للخوف .. انهضى وامرحى .. إنك بصحة جيدة .. والده فقط هو الذى مات .. مات قبل إيجاد (رقم واحد) .. كانوا يريدون استبدال قلب الصبى بقلبه .. ولكنه مات قبل إيجاد (رقم واحد) .

قالت لى ذلك لأنها فهمت اللبس الذى وقعت فيه وأنا فى غرفتها قبل ساعات .

فقلت بضعف .. وأين (رقم واحد) .. ؟..

فقالت بغضب :

إياك والسؤال عنه .. لا أحد يعنم .. لا تلفتى نظر أحد إلى اهتمامك به .. وإلا اتهمت بمساعدته على الهرب .. ثم إنى لا أعرف عنه شيئًا .. أحذرك من السؤال عنه .. أحذرك .. أفهمت ؟

فسكت .. ولم أسأل عنه أحدًا قط .. يكفى أنه سليم معافى .. هذا كل ما يعنينى ، وأشد ما يعنينى ، وإننى لعلى استعداد لأن أضحى بكل ما تهفو إليه نفسى على مذابح سلامته .

لقد فهمت أن المديرة لا تزال خائفة من انكشاف أمر تساهلها مع (سلمى) ، بشأن زياراتها لى .

شعرت بارتياح كبير ، ساعدنى على أن أبل من مرضى بعد أيام قلائل ، وانتظمت فى سلك الدراسة مع زميلاتى ، بيد أنى لم أجد الرغبة السابقة فى استيعاب ما يقال أمامى من معلومات .. لقد زهدت فى كل شىء .. حتى فى الحياة نفسها ..

وكان هزالى ، واصفرار وجههى ، وفقدى للشهية ، عوامل ساعدتنى على تجنب الكثير من إلحاح المدرسات أو العاملات فى الدار لمعرفة دورى فى عملية هروب (رقم واحد) ، كأنهن اكتفين بما حل بى ، بيد أنى كنت أشد اشتياقًا لإثارة أى موضوع من الحديث معهن حول (رقم واحد) . ولكنى أحجمت خوفًا من المديرة .. وانتظرت بفارغ الصبر أن يأتى البدء منهن .

ويومًا طلبت منى مدرسة الحساب ، البقاء فى الفصل بعد انتهاء الدرس .. فبقيت .. فقالت لى : أراك دائمة الشرود .. عاجزة عن استيعاب ما يقال أمامك .. لماذا يا أمل .. هل مازلت تشعرين بالمرض ؟

فقلت مبتسمة مشجعة لها على مواصلة الحديث .. إنى بخير ..

إذن لماذا أراك شاردة الفكر .. أنت معنا ، ولست معنا ..؟..

فقلت مراوغة : لست أدرى .. إنى كما أنا .. لم أتغير .. بل تغيرت كثيرًا .. منذ فارقنا (رقم واحد) .. وضحكت .. أليس كذلك ؟.

فقلت بحذر .. أنا لا أرى (رقم واحد) إلا مرة فى الأسبوع ، وعلاقة كهذه ، لا تتوطد كثيرًا ..

فضحكت مرة أخرى . وقالت .. حسنًا .. المهم أن تكونى معنا بذهنك .. وليس بجسدك فحسب .

وهممت بمغادرة الفصل .. خفت من انقطاع الحديث عن (رقم واحد) ، فقلت مسرعة آنسة .. آنسة ..

التفتت ، وعادت .. نعم ماذا تريدين يا (أمل) ؟

فقلت باستحياء .. هل حقًا مات والد (رقم واحد) ؟..

اتسعت ابتسامتها ، رغم موضوع سؤالى الحزين .. لقد فهمت أنى أتوسل بهذا السؤال ، كى أستطلع أخبار (رقم واحد) ، بطريقة غير مباشرة .

فجلست على حافة منضدتى ، دافعة الكراسات والكتب جانبًا وقالت :

الفارق بيننا ليس كبيرًا .. أنا فى الواحدة والعشرين ، وهذه أول سنة لى فى سلك التدريس .. وأنت فى السابعة عشرة من العمر .. أنا أفهمك تمامًا .

وأظن أن وجهى أحمر .. لأننى شعرت بحرارة شديدة تشتعل فيه .

واستطردت : سلى بطريقة مباشرة ..

أحرجت تمامًا، فقلت .. ماذا حل بـ(رقم واحد) ..؟..

لم يجدوه .. لقد فرّ .. لا أحد يعرف من ساعده على الفرار .. يقال إنه قفز من على السور .. المهم أنهم لم يجدوه فى حينه ، بعد أن انقلبت العربة الفارهة بأبيه ، وتهشم صدره بدرجة كبيرة ، وطحنت أضلاعه .. فرّ الابن .. ولم يجدوه ..

وسكتت برهة ، ثم استأنفت :

كان الأب فيما يبدو مودعًا المستندات التى تخوله استعمال (رقم واحد) كقطعة غيار له ، لدى أحد المستشفيات الخاصة ، التى يتعامل معها ، مع تفويض كامل منه ، باستدعاء (رقم واحد) فى أى وقت يرون أن الحاجة ماسة إليه .. لقد عرف هذا من أمر الاستدعاء الذى أتى به مندوب المستشفى فى اليوم التالى للحادث الذى تعرض له السيد (عادل) .. ولكن (رقم واحد) ، كان أسرع فهرب .. الذى يحيرنى من الذى أخبره بأمر والده ؟.. شىء محير حقًا .

لدى مجموع العاملين فى الدار ، وغيرهم أيضًا فضول كبير لمعرفة كيفية هروب (رقم واحد) .. ومن ساعده على الهرب ، وكانت إشاعة مصدرها المشرفة على باب الزيارات الأسبوعية ، والتى مهمتها مناداة النزلاء لذويهم ، تذكر هذه الإشاعة أن ـ والدة (رقم واحد) تقوم بزيارة للفتاة اللقيطة (أمل) كل أسبوع ، بعد أن منعت من زيارة (رقم واحد) من قبل والده ـ .. ولذا كان الجميع يتحرق لمعرفة الحقيقة التى لم يستطيعوا التوصل إليها ، وهى هل لى يد فى هروبه ؟

وهم لن يستطيعوا معرفة ذلك من أحد غيرى ، وأنا لن أفتح فمى ، أو من المديرة التى استطاعت دون ريب أن تخمن الذى جرى بصورة صحيحة ، ولكنها تتكتم الموضوع بشدة . ولذلك لم يعرف أى شىء حول الموضوع بصورة أكيدة .

فقلت إبعادًا للشكوك عن ذهنها :

قد يكون هرب بإيعاز من نفسه .. لأنه يريد الهرب ضجرًا من الدار .. فجاء زمن هروبه ، مع وقت الحادث الذى جرى لوالده ..

فقالت .. قد يكون كما تقولين .. ولو أنها صدفة نادرة ..

فقلت معترضة :

كيف تكون نادرة وهى صدفة .. فالصدفة لا تكون صدفة إلا لندرتها ..

ضحكت .. أوه ، أنت فيلسوفة أيضًا ..

واطمأننت إليها أكثر .. فقلت : وأين هو الآن ..؟..

ضحكت كثيرًا وقالت هنا بيت القصيد .. تريدين أن تهربى إليه .. لن تستطيعى .. إنه رهن الاعتقال مع والدته السيدة (سلمى) .. لا تعرفين هذا طبعًا ، لأنك شفيت من المرض حديثًا .. وعزفت عن محادثة الناس ..

كانت تخلط حديثها بالمزاح . وأنا أتمسك بجدية الحديث ، حيث ليس فى ذهنى أى ميل للمازحة .. فكل همى أن أتوصل إلى أى خبر مهما كان تافهًا يتعلق بـ(رقم واحد) .. فقلت :

وهل سيحل بهما مكروه ..؟..

لا أظن .. كما تقول الصحف اليومية .. إن قضيتهم ليست بالقضية العادية .. بل يمكن آلا تسمى بقضية ، كما هو معروف بالنسبة للقضايا .. لا أحد وجه إليهم اتهامًا جديًا ، فقط قدمت إدارة المستشفى الخاص طلبًا لقوات البوليس للبحث عن (رقم واحد) .. ولكنها وجهت اتهامًا إلى السيدة (سلمى) بمعاونته على الهرب ، دون أن يكون لديهم دليل واحد .. ثم إن إدارة المستشفى لا تتهم أيًا منهما بشىء بعد أن توفى والد (رقم واحد) الذى بموته سقطت فعالية التفويض الذى لديهم من والد (رقم واحد) ، الذى هو وحده

صاحب الحق فى إقامة دعوى قضائية ، للتعويض عن الأضرار التى لحقت به . بل لا يحق له إقامة دعوى قضائية على (رقم واحد) ، لو كان حيًا .. لا يستطيع فعل ذلك ضد شخصية اعتبارية ، حيث إن (رقم واحد) ليس له هوية ولا اسم .. والدعوى القضائية يجب أن تكون على من يملك هذه الشخصية الاعتبارية ، كالعربة مثلًا ..

والمالك لـ (رقم واحد) هو السيد (عادل) ، فكيف يقيم دعوى قضائية ضد نفسه ؟

وضحكت مستأنفة .

ولكنه يستطيع إقامة دعوى قضائية ضد (سلمى) ، فيما إذا كانت ساعدته على الهرب للضرر الذى يلحق به .. على أية حال لقد مات السيد (عادل) .. وانتهى الإشكال .. إنه لأمر غريب حقًا ، أن يستعان بـ(رقم واحد) لترقيع السيد (عادل) .

فتنهدت ارتياحًا وقلت إذن لماذا لا يفرج عنهما ..؟..

قد يُفعل قريبًا .. مجرد شكليات قانونية روتينية .. لست أدرى .. حتى أقوال الصحف التى قامت قائمتها ، ولم تقعد بعد ، متضاربة .. لقد وجدت مادة جديدة كل الجدة للأخبار .

فقلت بحرج شديد .. هل أسألك سؤالًا ؟..

طبعًا .. طبعًا .. لقد أصبحنا صديقتين ..

أفى مقدورك إعارتى هذه الصحف .. أنا أعلم أنها ممنوعة علينا ، ولكن لن أدع أحدًا يراها معى سأضعها داخل كتبى الدراسية ، وأنا أقرأ الموضوع .

ضحكت .. ألا تعرفين الصحف ..؟.. إنها كبيرة ، ليست بمثل الكتب ، ولكن بما أنه لا يهمك من أخبارها إلا ما يتعلق بـ(رقم واحد) ، فسوف أقصى لك كل المواضيع التى تتحدث عنه ،

والقصاصات صغيرة .. ولكن لو رآها أحد معك .. إياك أن تبوحى بأنى التى جلبتها لك .. أنا أعرف كم أنت كتومة من واقع الحال الآن .

اطمئنى .. اطمئنى .. كيف أخذل امرءًا ساعدنى ؟

ففاجأتنى بسؤال ضاحك أتحبينه ؟..

وهنا عاودنى الخوف والحذر . فسكت ، ولكن تعابير وجهى قالت لها كل شىء .

بعد أسبوع تقريبًا ، وجدت مدرسة الحساب تدس رزمة خفيفة بين أوراقى ودفاترى المدرسية ، قبل أن أغادر الفصل .. وتغمز لى بطرف عينيها أن أنتبه .. أخذ قلبى يجب وجوبًا سريعًا .. ولا أنسى وأنا أرتب تلك القصاصات بين صفحات دفاترى بمادة لاصقة ، كى أعيد قراءتها مرات عديدة كل يوم مرّ بى وأنا هناك ، لا أنسى مدى الامتنان والاعزاز اللذين شعرت بهما نحو تلك المدرسة الشابة أبدًا .

لم تزد أقوال الصحف فى مضمونها ، عما قالته لى مدرسة الحساب .. جاء فى إحدى القصاصات :

« قبض على السيدة (سلمى) ، وهى أول سيدة تبرعت بالحمل بتوأم .. قامت بذلك لصالح السيد (عادل) الذى أصبح زوجها فيما بعد ، والذى توفى إثر حادث أليم مزقت فيه أضلاعه شر ممزق .. قبض عليها بتهمة تهريبها التوأم الاحتياطى للسيد (عادل) » .

وفى أخرى :

« رفضت السيدة (سلمى) الاعتراف بأى دور لها فى هرب (رقم واحد) التوأم الاحتياطى لصحة السيد (عادل) ، والمودع فى دار الأيتام من قبل السيد (عادل) ، وأنكرت معرفتها بحكاية الهرب تلك إلا من الصحف .. » .

وأخرى :

« قبض على (رقم واحد) ، بعد فوات الأوان ، أى بعد وفاة رديفه . إنه شاب يافع على درجة كبيرة من الخلق والمفهومية ، اعترف بأنه هرب لحماية نفسه .. وقال إن من حقه على نفسه أن يحميها من الخطر الذى يتهددها فى أية لحظة ، ويجب ألا يجرّم من أجل ذلك ، حتى ولو كان إنسانًا بلا هوية .. أو أنه فى درجة الحيوان ، كما يحلو للسيد (عادل) أن يصنفه ، وقال : إن الحيوان نفسه يحمى ذاته عند شعوره بالخطر بقدر ما يستطيع من القدرات ، التى لديه . ولذلك فهو ليس مذنبًا .. فالشعور بالخطر شعور غريزى ، يدعو كل حى لتجنبه ، وقال : إنه هرب بإيعاز من نفسه ، وأنه لا يعرف أن والده ، أى توأمه قد تعرض لحادث .. وإنما جاء هروبه كنوع من الإجراء الاحتياطى .. لأنه يعرف مسبقًا بالخطر الذى يتهدده فى أية لحظة ، من لحظات الليل أو النهار ، يعرف مصيره المظلم فى المستقبل طال زمن هذا المستقبل أو قصر ، وذكر أنه كان يخطط للهرب من فترة طويلة ، والدليل على ذلك نسجه الحبل أداة هربه ، إذ لا يعقل أن يتسع يوم واحد لذلك . أى اليوم الذى تعرض فيه السيد (عادل) للحادث .. فالفكرة مختمرة فى ذهنه منذ أن بدأ يدرك الخطر .

وأضاف قائلًا :

إن أمر اعتقالى باطل .. باطل .. ليس ثمة سند قانونى أو حجة دستورية تجيز لكم اعتقالى ، ومن ثم محاكمتى ، طالما أنا شخصية اعتبارية ، فأنا غير مسئول عن أى تصرف فى نظر القانون .. فهل فى وسعكم محاكمة شجرة أو أسد ؟ .

وقالت الصحيفة غامزة : لاحظوا تعبير الصبى ، لم يقل كلبًا مثلًا .. وإنما اختار من بين جميع الحيوانات (الأسد) .. حقًا إن الابن سرّ أبيه . بيد أن الرديف أعمق سرًا ..

واستأنف الفتى :

إن الذى يجب أن يحاكم عنه هو من يملك حق التصرف فيه ، ومن يملك هذا الحق ، توفاه الله لأجله .

وردًا على سؤال للصحيفة .. لمن التجأ عند هروبه ، وهو الذى ليس له من معين سوى السيدة (سلمى) ؟

أنكر أى دور للسيدة (سلمى) . وقال إنها مهما تعاطفت مع وضعه الشاذ ، إلا أن محبتها لزوجها حتمًا ستكون أكبر .. وقال إننى لا أنكر أنها سيدة رقيقة طيبة حنون .. ولكن ليس لها دور فى هروبى ، ولم ألجأ إلى أى مكان بمساعدتها ، وذكر أنه عمل خادمًا لدى إحدى الأسر لاعالة نفسه .. ولكنه رفض الإدلاء بشىء عن تلك الأسرة ، التى ادعى أنه عمل لديها متعللًا بأن تلك الأسرة لا تعرف من يكون ، ولذا ليس لها ذنب فى الموضوع حيث لم تكن طرفًا فيه .. إنما انتحل اسمًا آخر ، كى يعمل لديها ..

أما عن كيفية القبض عليه فقد قال : حالما عرفت بموت توأمى لم أعد أخاف شيئًا .. فخرجت إلى الطريق معرضًا نفسى ومعلنًا عنها لفتًا للأنظار ، فمن أراد أن يقبض علىّ فليأت .. وها أنتم قد قبضتم علىّ » .

وأكبرت موقف (رقم واحد) ، وقدرت شدة ذكائه ، فكنت فخورة به بينى وبين نفسى .

وبعد حوالى الشهر .. دست بيدى مدرسة الحساب الطيبة قصاصات أخرى .. قرأت فيها :

« تم الإفراج يوم أمس الأول عن كل من السيدة (سلمى) ، والفتى (رقم واحد) ، حيث لا توجد إية تهمة موجهة إليهما من أى طرف ، بعد أن أسقط المستشفى الخاص تهمته عن السيدة (سلمى) ، حيث لم يكن طرفًا فى الموضوع ، بعد أن توفى السيد (عادل) . فلم يعد لأى جهة الحق فى إقامة دعوى قضائية

عليها .. وفى لقاء صحفى مع السيدة (سلمى) ، صرحت بأنها سوف تقوم قريبًا بإجراءات تبنى (رقم واحد) ، وأنها سوف تطلق عليه اسم (على) .. وتبعًا لذلك سيمارس حياته بصورة عادية كأى شخص عادى ، بعد زوال محنته .. وقالت أيضًا إنها سوف ، تهبه نصف ثروتها التى آلت إليها بالميراث من زوجها السيد (عادل) بعد وفاته .. وذلك بسبب أن ابنها الجديد (على) لا حق له فى حصة من تركة أبيه أى توأمه ، بسبب من الإشكالات القانونية ، والدستورية التى طرأت لأول مرة على الساحة القانونية ، ولذلك فكل ثروة السيد (عادل) آلت إلى ابنه حازم ، وزوجته السيدة (سلمى) .. وقالت أيضًا إنها سوق تقوم بتدريبه مع متخصصين فى عالم التجارة والمال لكى يتمكن من إدارة الثروة الهائلة التى تركها السيد (عادل) وراءه ، والتى هى عبارة عن عدد من الشركات ، ومصانع عدة للمعدات الثقيلة ، وأرصدة هائلة فى البنوك ، التى خلفها .. وذلك بالاصالة عن نفسه ، لأنه صاحب الثروة التى أهدتها له والدته ، وبالوكالة عن أخيه الطفل (حازم) الذى يبلغ من العمر التاسعة تقريبًا .. لأن السيدة (سلمى) وصية على الطفل ومن حقها إنابة من تشاء عنها فى إدارة أمواله .

وعلقت الصحيفة بعد ذلك قائلة .. يا لها من امرأة عظيمة حقًا .. انقذت حياة الفتى المسكين من موت محقق ـ القتل المشروع ـ مضحية بزوجها ، ثم بنصف ثروتها .. وهى امرأة نكية دون شك ، فقد فعلت ما فعلت دون أن تترك ما يدعو إلى مؤاخذتها .. ولكنه الحق الذى لا يعلى عليه أزرها .

وعلقت الصحيفة أيضًا ، فقالت :

أما الفتى فلا شك أنه محظوظ ، إذ يسر له القدر مثل هذه الوالدة ، التى هى مع ذلك ليست بأمه ، ويسر له مثل هذا الثراء

الفاحش ، وإن كان قد عانى الكثير فى بدء حياته .. ولكن قد يأتى الحظ متأخرًا .. فلا تيئسوا يا أصحاب الحظ الردىء .

كل الذى أقوله أو أكتبه ، أو أردده ، لا يعبر عن مدى الفرح الذى استشعرته فى تلك اللحظة .. كانت فرحتى تكاد تنفجر بها أضلعى ، وليس لى من متنفس غير نفسى .. فأخذت أدور وأرقص وأغنى ، طيلة يومى وليلتى .

ثم انخفضت حدة انفعالى ، لمدة أسبوع ، كنت خلاله فى شبه غيبوبة فكرية ، وفى الأيام التالية له تحولت إلى حال من الترقب المضنى ، فكل همسة ، أو إشارة ، أو نداء يخيل إلى أنه آت من قبله .

ثم انقلب حالى إلى قلق شديد .. ترى هل يتذكرنى ، ويعود إلىّ ، أم تلهيه فرحته بالحرية .. وتشغله الثروة والحياة الجديدان عليه ؟

وطال ترقبى .. ويزداد قلقى يومًا بعد يوم .. ولا بارقة من الأمل .

نكصت على عقبى أجر أذيال الخيبة ، ولولا مدرسة الحساب اللطيفة معى دومًا ، والتى أخذت تشاركنى همومى ، وتجتر معى أساى وحزنى . لما عرفت كيف تمضى الأيام بى .. وقد توطدت العلاقة بيننا ، وأفضيت إليها بكل أسرارى .. كانت تزورنى فى غرفتى فى غفلة من أعين المديرة والمشرفات كلما سنحت لها سانحة . أو أبقى أنا فى الفصل بعد انتهاء الدرس ، لأبثها شكواى وألمى .. نعم لولاها لما عرفت ماذا سيحل بى .

وبعد مضى ما يقارب السنة ، وقد يئست تمامًا ، واستسلمت لمصيرى ، وأهملت الذهاب إلى باب الزيارة كل يوم زيارة أسبوعية ، بعد أن أعيانى الانتظار ، فأخذت فى البقاء فى غرفتى أبكى حرقتى .. أو أتجول فى ساحة الدار على غير هدى ، دون أن أقترب من مكان تجمهر النزلاء ، وهم فى انتظار لذويهم .

وأنا أتجول فى ساحة الدار كعادتى ، شاهدت مدرسة الحساب تشير بيدها نحوى منفعلة ، وتحثنى على الركض إليها .. فركضت حتى أصبحت أمامها .. فقالت .. تعالى .. تعالى ..

وأخذت تجرنى حتى وصلنا غرفة المديرة .. وأنا أحاول التملص من قبضتها بالإكراه ، حتى أتجنب الدخول إلى غرفة المديرة .. حاولت ألا أدخلها إلا مضطرة .. فقالت :

إنها تريدك .. المديرة تريدك .. بعثت إحدى الخادمات إلى غرفتك .. تعالى .. تعالى ..

ودخلت بخطى وجلة .. وهناك رأيت (سلمى) تنتصب أمامى .. فوقفت ، وقد تخشب بدنى ، ولكنها ألقت بنفسها إلىّ ، وضمتنى إليها ، وأخذت رأسى على كتفها .. الذى لم يلبث هذا الكتف الحانى أن غرق بدموعى الصامتة .. وبعد أن هدأ روعى . قالت سلمى :

لقد خطبتك لابنى (على) من مديرة الدار .. وكتبت تعهدًا بحسن رعايتك .. وسوف تخرجين معى غدًا .. بعد إتمام إجراءات خروجك بطريقة رسمية .. لتزفى إلى (على) بعد شهر من الآن على الأكثر .. أيوافقك هذا ..؟..

وقبل أن أجيب ضحكت المديرة عن أوداج متهدلة وعلقت :

طبعًا يوافقها .. والدليل على ذلك هذه الدموع السخية ..

ولم أشعر بالامتنان نحو المديرة مثلما شعرت به نحوها فى ذلك الموقف العتيد .. غفرت لها كل قسوتها معى طيلة ثمانية عشر عامًا من المعاناة .. لقد عبرت عن أفكارى باختزال شديد ..

★ ★ ★

ها قد مضى على زواجى من (رقم واحد) ما يقارب الخمسة أعوام ، ليس هناك هناء أعظم من هنائى على وجه الأرض ، كما تصوره لى حالى ، بعد أن وجدت الزوج الطيب ، والأسرة الحنون .. إن والدة (على) لم تتخل عن خلالها النبيلة معنا ، فهى أم رؤوم لنا كلنا .. لقد ضحت بكل نفيس وغال ، وكرست لنا حياتها نحن الثلاثة ، أنا و (على) و (حازم) .

إن (حازم) الآن شاب يافع فى الرابعة عشرة من عمره .. ألاحظ دائمًا نظراته الحاقدة نحو (على) .. إنه يعتبره السبب المباشر لموت أبيه ، وبرغم محاولات أمه العديدة فى استمالته نحونا .. إلا أنه بادى الجفاء .. حقًا إنه لا يصرح عما يعتمل فى داخله .. ولكنه منطو على نفسه ، لا يحدثنا إلا لمامًا ، وكل اهتمامه منصب على والدته ، ومع ذلك فنحن ، أنا و (على) ، نكن له كل الحب والاحترام من أجل إنسانية الإنسانة الحقة ـ والدته .

لم يعكر صفو حياتنا تلك سوى عدم إنجابى ، رغم مضى تلك المدة .. كان (على) يطلب بما يشبه الإلحاح الغريزى ، توأمة نفسه للتكاثر .. وكنت أنا أعارض الفكرة ، لسبب لا أدريه ، ربما لعقدة ترسبت فى أعماقى من معاناته .. ولكنه كان يطمئننى بقوله : إن مستقبل توأمه يختلف كل الاختلاف عما تعرض له فى حياته ، لأنهم لن يكونوا ردائف له كصيانة .. بل سيكونون استمرارًا لوجوده .. وسوف تكون لهم أسماء وهويات .. وسوف يتمتعون بحياة هانئة رضية ، وهو لدية كل هذه الثروة .. ويقول إنه الآن فى الخامسة والعشرين ، وأنا فى الرابعة والعشرين ولم ننجب ، ويجب ألا نتأخر عن ذلك كثيرًا .

وتنفيذًا لرغبتى زرنا الطبيب أنا وهو ، لاختبار قدراتنا على الإنجاب . وقد هزنى أشد الحزن عندما صارحنا الطبيب أن (على) عقيم لا ينجب .. ولكن الغريب فى الأمر أن (على) لم يتأثر البتة للنبأ المحزن .. وكأن الأمر لا يعنيه ، وأصر على توأمة نفسه باندفاع غريزى للحفاظ على امتداد بقاء نوعه . وقد اتخذ من نتيجة فشل الفحوصات الطبية التى أجريناها ذريعة له بغبطة شديدة .

وبما أننا نملك الكثير من المال ، فلم يصبح هذا الأخير عائقًا لنا .

توأم نفسه مرة واحدة إلى اثنين من الأبناء ، أو بالأصح التوأم ، تبرعت أنا بحمل أحدهما ، وطلب منى بعد أن كبرا قليلا أن أحذو حذوه ، إذ ليس فى مقدورى الإنجاب طالما أنا زوجة له .. وترددت ولكن فى النهاية ، عندما رأيت إلحاحه ، وكى أطمئنه إلى أنى لن أتخلى عنه أنجبت عن طريق التوأمة بنتًا واحدة .. نسخة طبق الأصل منى .. كنت خائفة من توأمة نفسى ، متخيلة أن قد أكرههم كما فعل السيد (عادل) ، ولكن الغريب أنى أحببت توأمتى بطريقة لا توصف ، ولا يتخيلها إلا من عايشها .. مما دعانى إلى التفكير طويلا فى الحديث الذى قاله السيد (عادل) رحمه الله ، عن اختلاف غريزة حب استمرارية البقاء عن غريزة حب صيانة الذات ، أو الحفاظ على النفس . فأنا عندما أنجبت عن طريق التوأمة ، وكذلك (على) كان هدفنا وجلّ اهتمامنا استمرارية وجودنا .. أما السيد (عادل) فقد كان همه الحفاظ على نفسه .. ونتيجة لتمعنى فى الأمر توصلت إلى نتيجة نظرية : أن السيد (عادل) قد لا يكون أنانيًا ، كما كنا نصفه كلنا ، ولكن قد يكون دافعه إلى فعل ما فعل سيطرة غريزة الصيانة لذاته والمحافظة عليها ، طبعت تصرفه ذاك . لأنه توأم نفسه بـ(رقم واحد) وهو تحت هذا التأثير .

إن ابنتى ، وأحد أبناء زوجى غير أخيه ، وإنما الآخر فقط يعتبر كذلك لأننى حملت به وغذيته من دمى ، ولذلك عندما كبرًا ووصلا إلى سن الزواج تزوج ابنه غير الأخ من ابنتى . وتزوج ابنه الآخر من فتاة غريبة عنا ، ولكن لم تستمر هذه الزيجة . وتوالت زيجاته ولكنها كلها باءت بالفشل لاكتشاف أمر عقمه . أما ابنتى فهى الأخرى عقيم لا تنجب .. ولذا فقد قررت مع زوجها توأمة نفسها إلى سبعة من التوائم ورفضت أن تحمل أيًا من توائم زوجها ، وذلك كى يكون فى مكنتهم الزواج من بعضهم البعض فلا يحصل لهم فى حياتهم ما حصل لابن زوجى الآخر .

ها أنا الآن عمرى ينيف على المائة عام .. وقد ماتت (سلمى) من وقت قريب جدًا .. وقد أصبح لزوجى أحفاد توأموا أنفسهم أيضًا إلى عدد كبير من التوائم .. بعد أن أصبح من الميسور جدًا القيام بمثل هذا العمل فى المعامل الصغيرة ولا يؤدى إلى تكلفة باهظة كما كان فى الماضى .

إننى ألمح مجتمعًا يتكاثر بتزايد من التوائم ، الذى يتزوج بعضه البعض ، لأن الناس العاديين يعزفون عن الاندماج بهم والتزاوج منهم ، بعد ما تبين لهم أن من ينشأ عن طريق التوأمة لا يستطيع الإنجاب ، إلا بالطريقة نفسها التى وجد منها .. كذلك عزفوا عن الاختلاط بهم ، مما دعا إلى بدء نشوء مجتمع مستقل للتوائم له تقاليده وأعرافه الخاصة ، وبدء نشوء تعاون اقتصادى وثقافى خاص بهم وبدء ظهور صغار القرى تنشأ من تكتلهم وتعاونهم مع بعضهم البعض .

لقد عشت حتى رأيت الإنسان ينقسم إلى عدة فصائل ، فهناك الإنسان الطبيعى ، الذى لم تعبث بخلقته يد غابثة ، وإنسان الأنابيب الذى أصبح له مجتمعه الخاص به ، حيث يعزف الإنسان الطبيعى عن الاختلاط به أيضًا ، بعد أن اكتشف أنه لا ينجب إلا عن طريق

الأنبوبة ، برغم أنه ليس بعقيم . فكوّن مجتمعه الخاص به ، يتزوج من بعضه البعض .. والإنسان الذى يجمد نفسه .. وبعد إفاقته يعيد تجميدها .. وهذا الإنسان مفصول اجتماعيًا بخط واضح حاد .. لا يربطه ببقية الفصائل أى نوع من التشابه الفكرى أو أسلوب الحياة ، وهو مسالم جدًا .. نظامى جدًا .. ونطلق نحن على مجتمعه اسم (الإنسان الباهت) ، لأنه باهت فكريًا بعد أن اختل ترتيب الجينات على حواملها من الكروموسومات .. وهو فى حال تغير مستديم من الفكر ، بين كل إفاقة وسبات ، تكون جيناته اتخذت أوضاعًا جديدة أخرى من الترتيب ، ولكن الذى لا يتغير عنده ، رغبته العارمة فى إعادة نفسه للحفاظ على استمرارية بقائه .

أما الفصيل الرابع ، فهو الإنسان التوأم أو (الأيم) ، كما تسميه (سلمى) رحمها الله .

وكثيرًا ما مرّ فى خاطرى شتى الأفكار والتساؤلات التى لا أجد عليها إجابة شافية ، وأنا أرى توأمى وتوائمه ، يتزوجون ويتوئمون أنفسهم .. وأولئك يتوئمون أنفسهم أيضًا .. وهكذا دواليك ..

أسأل نفسى .. ترى أصابت (سلمى) فى عملها عندما حمت (رقم واحد) من مصير مرسوم له .. وتساؤلى هذا لا يغير من مشاعر المحبة والإعزاز التى أكنها لـ(رقم واحد) ، برغم غيابه عنى بالموت منذ أربعين عامًا .

نعم كثيرًا ما مر بخاطرى ، لِمَ كنت أنا و (سلمى) منساقين مع عواطفنا إلى درجة لم نلحظ الخطر الذى يتهدد الإنسان الطبيعى من مزاحمة فصائل أخرى له قد تؤدى به إلى الهلاك .. قد يكون لنا عذرنا .. ولكن ما عذر أولئك العلماء من الأطباء ، الذين ارتكبوا أفدح الأخطاء بإجراء هذه المتغيرات على الخاصية الفيزيائية للإنسان ؟. لقد جانبوا الصواب فيما قاموا به من قسمة الإنسان إلى

فصائل .. نعم ما عذر الأطباء العلماء لتلاعبهم فى طبيعة اتسمت بحسن الخلق على الإنسان ، بالتغيير والتشويه ؟

والعلم فى جعبته الكثير ، فمن يعلم ماذا سيحدث من متغيرات فى المستقبل ؟

والعلم فى جعبته الكثير ، فمن المحتمل جدًا أن تقسم الفصائل إلى فصائل وعندئذ يمكننا تصور ما سيحل بالبشرية من تعاسة وويلات .. فبدلًا من أن يحارب الإنسان أخاه الإنسان لأسباب تافهة ، خارجة عن كينونته وبذا يمكنه التنازل عن مطلبه فى أى وقت يشاء .. فبدلًا من ذلك سيحارب الفيصل فيصلًا آخر لأسباب جذرية ، لا يمكنه التنازل عنها ، ألا وهى الحفاظ على طبيعته ، والحرب عندئذ تكون أقوى وأشرس .

ومع ذلك فالعلم فى جعبته الكثير كما قلت .. وأنا مازلت بصحة جيدة ، ربما أرى الكثير من الأمور والمتغيرات الأخرى ، من يدرى ؟

[تمت]

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

المؤلفة
طيبة أحمد الابراهيم

الإنسان المتعدد

(الإنسان المتعدد) ، قصة من الخيال العلمي أيضا .
وهي القصة الثانية للمؤلفة التي تخوض هذا المجال .
وفيها تصر المؤلفة على موقفها فيما جاء من أفكار سابقة لها في قصة (الإنسان الباهت) . حول التغيرات التي تحدث في العمق الفيزيائي للإنسان نتيجة لإجراء تجارب التقدم التقني عليه .
ومضمون هذه القصة شرح لفكرة وردت في قصة (الإنسان الباهت) .

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن في مصر
٢٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم